نادر الأتاسي

حياتي ثلاثية الأبعاد





نادر الأتاسي

الطبعة الأولى 2012 م

نـــــادر الأتـــاســي

حـيـاتــي...

ثـلاثـيـة الأبـعـاد

إلى زوجتي ورفيقة عمري السيدة نهى

وأولادي:

إيمان

حمّاد

ريم

ديالا

وعائلاتهم، والأحفاد الأحباء

وجودهم جميعاً زيّن حياتي

وإليهم أهدي هذا الكتاب

المعلم نـادر

أتساءل ما جدوى أن أقدّم لسيرة الصديق نادر الأتاسي بينما سجله كتاب منشور على الملأ يتحدث وحده عن منجزاته الهندسية والعمرانية الكثيرة التي توزعت على امتداد أرض الوطن مثل المنارات المضيئة، وعن تفوقه في كل ميدان عمل فيه.

فعلى مدى ما يقرب من سبعين عاماً كانت مؤسسة الأتاسي في صدارة البيوت الهندسية الخاصة للإنشاءات والتعهدات التي قامت، إما بمفردها أو بالتعاون مع جهات رسمية محلية أو عربية أو عالمية، بتشييد عشرات المعامل والمجمعات الصناعية، والطرقات السريعة، وشبكات الري، ومحطات توليد الكهرباء، والفنادق والمنتجعات السياحية...

وكان شعارها الذي التزمت به هو:

"إنجاز بأقل النفقات وبأفضل المواصفات"

وهذا ما أكسبها ثقة الجهات الدوليةواعتمادها عليها في انجاز المشاريع الهامة التي تعهدت بتمويلها ولا سيما تلك التي موّلها (البنك الدولي).

وكان أبرز ما أنجزته في السنوات الأخيرة بناء ستة وعشرين فيلا رئاسية في دمشق، في مدة قياسية قصيرة لا تتجاوز ستة شهور، لإقامة رؤساء الدول العربية خلال مؤتمر القمة الذي انعقد عام 2008.

ويعزى نجاح نادر الأتاسي في مسيرته المهنية في مجال الهندسة والمقاولات إلى أسباب كثيرة لعل أهمها: اعتزازه بعصاميته، وقيامه ببناء مؤسسته العملاقة حجراً حجراً ومتابعة الحثيثة لكل مراحل أي مشروع اقتنع بأهميته، وإقدامه على مجابهة التحديات بجرأة، وقدرته على تجاوز المصاعب بهدوء، وتعاونه مع فريق عمل متجانس اختاره وأهله وتابع أداءه عن كثب، مما جعله يُعرف بلقب "المعلم نادر".

وفي ضوء ميله إلى الفنون الجميلة بأنواعها ولا سيما فنون المسرح والسينما والموسيقى قرّر أن ينخرط أيضاً في ميدان الإنتاج السينمائي ولكن على أسس علمية واعية بعيداً عن الإرتجالات التي شابت السينما السورية في أيامها الأولى.

ومن هنا فقد انتهج المبدأ ذاته الذي التزم به في إنجازاته الهندسية حين رأى أن بنيان الصناعة السينمائية السورية، كما أي بنيان عمراني، لا يرتفع عالياً صامداً إلا إذا وضع أسسه أهل المعرفة والإختصاص.

وهكذا استطاع نادر الأتاسي مثلاً أن يجذب الأخوين رحباني وفيروز إلى ميدان السينما بعد أن كانوا يحجمون عن دخوله وذلك بعد أن تيقنوا أنه سيضع تحت تصرف أي فيلم سينتجه لأحد أعمالهم أرقى الوسائل الفنية وسيأتي له بأهم المخرجين. وبالفعل فقد تعاقد مع شاهين لإخراج "بياع الخواتم" وهنري بركات لإخراج "سفر برلك" و "بنت الحارس". وتعتبر هذه الأفلام الثلاثة التي قامت ببطولتها فيروز من أجمل الأفلام الغنائية العربية.

ومن منطلق الإيمان بأن أي إنجاز يجب أن يكون من (الدرجة الأولى) أو (لا يكون)، فقد عمد عام 2009 إلى إعادة بناء سينما دمشق وجعلها لا تقل جمالا ورقياً عن أي دار للسينما في أوروبا أو أميركا، وزوّدها بأحدث أجهزة العرض والصوت، وجلب لها أحدث الأفلام العالمية، وأطلق عليها اسماً جديداً هو (سينما المدينة) Cinemacity فأصبحت واحدة من مفاخر المنشآت الفنية الحديثة في دمشق.

د. صباح قباني

مقدمة

سألني من أقترح ليكون مخرجاً للفيلم "الحدود" الذي قرر إنتاجه بعد أن راقه السيناريو.. كان في رأسي اسماً واحداً ولكنني لم أجد الشجاعة للبوح بالاسم رغم ابتسامته المحببة التي كان يستقبلني بها دوماً.... لحظات واستجمعت شجاعتي وقلت هل تمانع أن أكون أنا ذلك المخرج وبدون تردد وبحماسة أجاب على بركة الله... لم أكن أتوقع هذه الموافقة وبهذه السهولة... كانت لحظة فرح لا توصف ولا تبرح ذكرياتي مع هذا الرائع (نادر بك) كما كان يحلو لنا أن نناديه... لقد كرسني مخرجاً سينمائياً كما سبق أن كرسني ممثلاً سينمائياً عندما غامر بانتاج "عقد اللولو"... أول فيلم سينمائي نشارك به نهاد وأنا ووضعنا فيه على درب السينما.

في اللاذقية صورنا فيلم الحدود، وفي جبل بالقرب من قرية بلوران أنشأنا (استراحة المسافر) الخاصة بالفيلم، وفي أحد أيام التصوير فاجأنا نادر بك بزيارته للموقع وطلب إلى إيقاف التصوير والعودة معه إلى اللاذقية.. للحظات انتابني الرعب وبدأت أسأل نفسي ما الذي لم يعجبه في أدائي ... استجمعت قواي وسألته لماذا نوقف التصوير؟ أجاب أتيت من دمشق خصوصاً كي أعيش معكم هذا اليوم. وأقام للمجموعة غداءً تكريمياً في فندق الكازينو الذي كنا نقيم فيه...

تحمله كلمة مشجعة منه طالباً إلى المسؤول عن الإنتاج أن يلبي كل طلبات دريد دون الاهتمام بالكلفة مهما كانت...

وهكذا عادته في "التقرير" و "كفرون" يكرمنا بحضوره المفاجئ الذي يأتينا كفرح العيد... لحظات فرح أخرى لا تبرح مخزون ذكرياتي مع نادر بك...

بتمشي شوي وبتمشي شوي وبترجعي تمشي تمشي شوي... عشرون عاماً أسمعه يغنيها بشجن وحلم يطل من عينيه كلما التقيته مما نقل إلي ولكل من حوله عدوى حلم فيلم "هالة والملك" إلى أن توهج الحلم في فيلم "سيلينا" وافتتح به سينما سيتي درة الصالات في الشرق الذي أنشأها بدمشق والتي يعتبر إنشاؤها مغامرة لا يقدم عليها إلا من عشق وطنه وأتقن صناعة الفرح.

في مسيرة نادر بك إلهام لكل من يطلب النجاح على شرط أن يمشي شوي شوي ويرجع يمشي شوي شوي ... أفتخر بصداقة هذا الناجح المثلث الأبعاد الذي شرفني بهذه المقدمة.

دريد لحام

اخترت عنوان الكتاب "حياتي ثلاثية الأبعاد" من وحي السينما، وتحديدا من أحدث طرق عرض الأفلام، أي النظام الثلاثي الأبعاد. ولا غرابة في ذلك، فالسينما كانت جزءا رئيسيا من حياتي ذات المجالات الثلاثة أيضا: الهندسة والمقاولات، السينما، المشاريع الاقتصادية ـ الاجتماعية، وهي تشابكت في مراحل مختلفة من حياتي وكنت نشطا على هذه الجبهات مجتمعة.

وبطبيعة الحال، تراكمت لدي الخبرات والتجارب خلال عملي على امتداد عقود في هذه المجالات المختلفة، بل وفي بلدان عديدة في الشرق والغرب. وكانت هذه الخبرات غنية بالأحداث والحكايات والطرائف. وكنت كلما رويت واحدة من هذه الحكايات في جلسات السمر الليلية، سمعت من الأهل والأصدقاء طلبات متكررة بضرورة تدوين هذه الخبرة الطويلة لما فيها من عبر. وكنت أشكرهم على مشاعرهم، لكنني أؤجل التنفيذ.

إلى أن تزايد الإلحاح وكان أن استجبت. وبدأت من 12 سنة بتدوين مذكراتي كتابة باليد، ولم أستعمل المسجلات. كتبت هذه المذكرات في نحو مئة صفحة وضعتها في أضبارة وحملتها معي في محفظة اليد. كنت سأسافر بالطائرة من باريس إلى نيس، ومنها إلى منزلي

في مدينة كان، حيث قررت أن أكمل كتابة المذكرات هناك.

في مطار شارل ديغول، في مركز شركة Air France كنت أراجع بشأن مقعدي وساعة السفر فوضعت الحقيبة على الأرض بين قدمي، وأثنـــاء انشغالي بالحديث مع موظفة Air France جاء شخص من خلفي وسألها „وأي ساعة ستنطلق الطائرة إلى نيس؟" فأجابته „ألا ترى أني مشغولة مع الأستاذ؟ خذ دورك وقف في الصف". فأظهر طاعة ثم توجه إلى الصف. لم يأخذ دوره في الصف، بل أخذ حقيبتي من بين قدمي واختفى !

سرق الحقيبة بدون أن أشعر لأني كنت مشغولاً بالحديث مع الموظفة. بعد الصدمة بدأت أعزّي نفسي لأن جواز السفر وبطاقة الطائرة كانا في يدي، لكن حزني على ضياع الحقيبة وبها المذكرات كان أقوى. كدت ألغي سفري، لكنني طول الرحلة بقيت أفكر فيما حدث. تملكني الغيظ بسبب تعرضي للسرقة، وبسبب أني لم أسجل المذكرات بصوتي على أشرطة، وأني لم أصور المكتوب بخط اليد وأحتفظ بنسخة في مكان آمن، كما أفعل دائما. نعم، غلطة الشاطر بألف، وهي مكلفة وباهظة الثمن.

في منزلي في كان قررت إلغاء فكرة كتابة المذكرات. لي صديق كاتب أخبرني مرة أنه أضاع مخطوطة رواية وأنه لم يتمكن من كتابتها مرة ثانية. وهو كاتب محترف وأنا من الهواة في هذا الفن. لكن إلحاح

الأحياء تزايد مجدداً، فوجدت نفسي الآن أعود لكتابة هذه المذكرات، بقدر ما يسمح لي به السنّ الذي بلغته وظروفي الصحية.

سأتكلم عن عملي في عالم الهندسة والسينما والمشاريع الاقتصادية الاجتماعية. وسيأتي الحديث عن أشخاص عرفتهم خلال العمل، وبعضهم إنتقل إلى الدار الآخرة، لذلك أسأل الله عزّ وجلّ أن يرحمهم جميعاً، كما أسأله الرحمة بالأحياء الباقين أيضاً.

ويطيب لي أن أشكر الذين ساعدوني في تدوين ما رويته لهم وفي تنشيط ذاكرتي بتنبيهي إلى بعض الأحداث، وأخص بالذكر الاستاذ إلياس الحلو والسيدة حنان رزق. كما أنوه بجهد الكاتب فارس يواكيم الذي راجع هذه المذكرات وحررها، وهو عرفني وعمل معي كاتباً للسيناريو والحوار في أربعة من الأفلام التي أنتجتها.

ومن البداهة القول إنني أقدم شكري إلى الصديق العزيز جداً ورفيق الدرب، الفنان القدير دريد لحام على المقدمة اللطيفة التي خص هذا الكتاب بها.

كما إنني أشكر الصديق الدكتور صباح قباني على كلمته وعلى صورة الغلاف التي أهداني إياها.

بداية الرحلة
حزيران 1943

في ذلك الشهر تخرجت في معهد الهندسة الفرنسي في بيروت، وحصلت على شهادة الهندسة بدرجة جيد. احتفلت مع زملائي المتخرجين مثلي. مشينا على الأقدام إلى ساحة الشهداء (كانت تسمّى «ساحة البرج" أيضاً) ثم انعطفنا صوب باب إدريس فإلى وادي بوجميل ثم إلى الكورنيش حتى عين المريسة واخترنا مكاناً في مقهى مطل على البحر. راح كل واحد يتكلم على مشاريع المستقبل. انتهت مرحلة من العمر، سنوات الدراسة، وأصبحنا على عتبة المرحلة التالية: الانطلاق إلى العمل. قلت للزملاء: في البداية سأذهب إلى حمص.

حمص، مسقط رأسي وملعب طفولتي ودار أهلي وعائلتي ونشأتي وذكرياتي الأولى. كنت أشتاق إليها وأنا في بيروت خلال سنوات الدراسة الجامعية وكنت أنتهز فرصة العطلات لكي أتوجه إليها. وكنت إذا طالت العطلة الصيفية أحنّ إلى بيروت وأنا في حمص. أحببت بيروت أيضاً. وسيبقى هذا الحب في قلبي، ولسوف يعيدني إليها بعد سنوات.

في طريقي إلى حمص، مرّ شريط الذكريات في ذهني. في هذه المدينة ولدت سنة 1921 في حيّ باب هود. وفيها تلقيت علومي الابتدائية

والثانوية. أما شهادة البكالوريا القسم الثاني (معادلها الحالي „الثانوية العامة" المؤهلة لدخول الجامعة) فنلتها من مدرسة التجهيز (أهم مدارس دمشق) وكنت أمضيت فيها تلك السنة في القسم الداخلي. ومن بعد توجهت إلى بيروت، إلى الجامعة اليسوعية.

كانت سوريا، ولبنان أيضاً، وقت تخرجي، بانتظار تطبيق الاستقلال التام بعد مرورعامين على إعلان استقلال البلدين بلسان المفوض السامي الفرنسي الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة. كان رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين الحسيني توفي في مطلع العام ذاته، 1943، وتولّى جميل الألشي رئيس الحكومة منصب رئيس الدولة أيضاً ريثما تجرى انتخابات. لكن الجنرال كاترو أقاله وفي 25 آذار 1943 عيّن عطا الأيوبي رئيساً للجمهورية والحكومة. وفي لبنان فرض تشكيل حكومة ثلاثية برئاسة الدكتور أيوب ثابت وعضوية المير خالد شهاب وجواد بولس. وتسنى له ذلك لأن القوات الفرنسية كانت ما زالت مرابطة في لبنان وسوريا.

وصلت إلى حمص والعائلة تنتظرني للاحتفاء بي، بخريج كلية الهندسة. دام الاحتفال ثلاثة أيام ثم استدعاني كبير العائلة عمي الحاج عاطف الأتاسي إلى منزله، وعبّر لي عن سعادة العائلة بعودتي حاملاً شهادة الهندسة من الجامعة الفرنسية في بيروت، وأخبرني باعتزازأنهم رتبوا لي وظيفة مهندس بلدية حمص التي يرأسها

فيضي الاتاسي، فوجيء الحاضرون من آل الأتاسي حين جاء ردي بأني أعتذر من تسلم هذا المنصب! نظرت إلى وجه أبي فوجدت الدهشة في عينيه، وعلى الفور بددت الفضول قائلاً: „أنوي أن اشتغل مقاولاً متعهداً في هندسة البناء. سيؤسس نادر أتاسي أول شركة للمقاولات في سوريا يترأسها مهندس من حمص". أثار الموضوع جدلاً وأعرب البعض عن رغبتهم في عدم فقدان هذا المنصب المحسوم للعائلة، وطالبوني بتسلم هذه الوظيفة لكي يكون للعائلة مركز حساس في مدينة حمص إضافة إلى المناصب الأخرى التي تشغلها. شكرتهم على اهتمامهم ومشاعرهم الطيبة وكررت بصريح العبارة رغبتي الحاسمة في العمل المستقل.

كان ذلك أول قرار اتخذه باستقلال وبمعزل عن رغبات العائلة. هكذا بدأت مهنتي كـ „ نادر الأتاسي المهندس والمقاول". علما بأنني كنت، وما زلت إلى اليوم، فخوراً بانتمائي إلى آل الأتاسي، تلك العائلة التي أعطت سوريا الأسماء الكبيرة العديدة في مختلف ميادين الشأن العام، وكان منهم فقهاء ورؤساء ووزراء ونواب وأطباء ومحامون وضباط وسواهم من الأعلام. بيد أني كنت راغباً في أن أشق طريقي بنفسي، وأن أصنع اسمي بجهدي، وكانت لدي أحلام أريد أن أحققها كمهندس.

كان أول المهنئين لي بتأسيس شركة المقاولات والدي المرحوم

الحاج صالح مراد الأتاسي. كان هذا هو اسمه الرسمي. لكنه منذ يوم ولادتي أصبح يدعى "أبو نادر" ولازمه هذا اللقب وطغى على اسمه الحقيقي. الأهل والناس ينادونه "أبو نادر". وكان يمتلك مزرعة تصدّر أطيب الفواكه والخضروات إلى عموم البلاد، وعلى الصناديق التي تنقل هذه البضاعة مكتوب "بستان أبو نادر". اشتهر أبي بالتقوى والود والتواضع، لذا سموه "أبو الدراويش". كان أصدقاؤه من الناس الذين لا يحبون المظاهر والتفاخر، ومعظمهم من التجار والفلاحين.

وكانت المهنئة إلى جانب والدي: والدتي الحاجة مخلصة رحمها الله. مخلصة رسلان بنت رفيق رسلان، شقيق نصر باشا رسلان الذي أصبح من أركان الحزب الوطني فيما بعد. وعائلة رسلان من عائلات حمص العريقة أيضا.

تأسست شركة نادر الأتاسي للهندسة والمقاولات. كانت الخطوة الأولى في رحلة الألف ميل. الشركة موجودة والأفكار والطموحات ولا ينقص إلا .. رأس المال!. ولم تكن السيولة متوفرة لدى والدي آنذاك، خصوصا وأنه أنفق الكثير على تعليمي في كلية الهندسة في بيروت وعلى تعليم أخي الدكتور جمال الأتاسي في كلية الطب في دمشق.

ذهبت إلى مقهى الروضة (وسيكون لهذا المقهى دور في سنوات

لاحقة من حياتي) وجلست أفكر في الطريقة التي سأمول بها مشاريع شركتي الجديدة. كنت منهمكاً في سلسلة أفكاري في التفتيش عن إمكانيات حين جاء شخص وجلس إلى جواري وعرّفني بنفسه قائلا: "أنا اسمي جمال سعيد الخجا. أنا من التجار وأتعاطى بعض أعمال التعهدات البسيطة، وقد سمعت أنك أسست شركة للمقاولات وتود التعاطي بهذه المهنة وأنك بحاجة الى رأس مال لتنفيذ مشاريعك". لوهلة خيّل إليّ أنني أحلم، لكنني أخرجت نفسي من الخيال وأعدت ذهني إلى الواقع لأسمع الرجل مستطردا: «أنا بإمكاني أن أعطيك رأس مال بسيطا ومحدودا، لكنه يكفي للإنطلاق". كان ثمة مشروع معروض للتنفيذ: طريق حمص – السلمية بطول 5 كيلومترات من حمص إلى السلمية، وهو جزء من الطريق الذي يشكل 15 كيلومترا. رحبت بعرض الرجل الذي هبط علي كهدية من السماء، وقلت له «فلنتوكل على الله". وأصبح جمال الخجا شريكا لي في مشاريعي ما دمت أشتغل في التعهدات كل حياتي.

أول مقاولة وأول سيارة

قررنا الاشتراك في المناقصة لتنفيذ مشروع طريق حمص ـ السلمية. كانت تلك المقاولة الأولى. بدأنا الاستعداد لتقديم العرض واستعنا ببعض الأصدقاء للمشاركة في إعداد الملف. كان تقديم العروض للمناقصة يجري في مبنى في المرجة بدمشق، الذي أصبح الآن مقر دائرة الشرطة.

ذهبت إلى مركز المناقصة في دمشق وسلمت العرض مع التأمينات. هناك وجدت بعض المتعهدين ويبدو أنهم كانوا متفقين فيما بينهم على إضافة 40% على قيمة العرض بينما أنا كنت قد أضفت 10% فقط وكان أن رست المناقصة عليّ. خرجنا من قاعة المناقصات وإذ بصلاح شيخ الأرض ـ وهو أحد الذين اشتركوا في هذه المناقصة وأضافوا 40% ـ يقول لي: „هذا المشروع سيجعلك تتعلم أن لا تشارك في المناقصات بعد اليوم" فأجبته بأن „هذه المناقصة ستعلمكم الكثير، ولن تشارك أنت بعد اليوم في أي مناقصة، وأعلمك بأن منطقة حمص ستكون محرمة عليك ولن تحصل فيها على أي مناقصة أخرى".

عدنا الى حمص وبدأنا الاستعداد لتنفيذ الطريق. كان الطقس ممطراً،

إذ أن المناقصة تمت في شهر تشرين، لذلك نصبنا شادراً اشتريناه من بقايا الجيش الانكليزي واتخذناه مقراً لإقامتنا. وقمنا بإنجاز المشروع بسرعة ونلنا سمعة طيبة وبلغت أرباحه 15000 ليرة كانت حصتي منها 10000 وهذا ما يعادل راتبي الذي كنت سأتقاضاه من البلدية لمدة سنة ونصف فيما لو قبلت الوظيفة.

كنت منشرحاً من هذه النتيجة وأرسلت الوالد الى مكة لأداء فريضة الحج. واستمر العمل بنجاح في العديد من الطرق والأعمال الصناعية في منطقتي حمص وحماه والأرياف ولمع اسمنا في عالم التعهدات.

وذات مرّة قررت أن أذهب من موقع العمل إلى حمص سيراً على الأقدام، إذ لم يكن لدينا سيارة، وعموما كانت السيارات في تلك الأيام قليلة التواجد. ظننت أني سأصل بسهولة وبسرعة فمشيت ومشيت ولم أشعر إلا والظلام قد بدأ يخيم وأنا لم أصل إلى مدخل المدينة بعد. وكنت سمعت أخباراً بأن هناك ضبعا يشاهده الناس في الليل ولم أكن أدري إن كانت هذه شائعة أو أسطورة، فبدأت أركض من الموقع الذي كنت فيه من دون أن ألتفت يمنة أو يسرة إلى أن وصلت إلى مدخل مدينة حمص وجلست على أول رصيف وصلت اليه.

وبعد هذه الحادثة قررت أن أحصل على سيارة لتنقلاتي. وكان أحد أصدقائي يمتلك سيارة بلايموث فنويت أن أشتريها. طلب صاحبها 5000 ليرة ولم يكن المبلغ متوفراً لديّ. كانت السيارة تعجبني لكنني

كنت بحاجة إلى التأكد من حالتها. طلبت من صديقي أن أذهب بسيارته إلى دمشق لتجربتها وأخذتها مع السائق. إتجهنا لدمشق وفي الطريق كنت أفكر في الطريقة التي سأدبر فيها ثمن هذه السيارة. وإذ نحن على وشك مغادرة حمص شاهدت شخصين ينتظران مرور سيارة يمكن أن تقلّهما. كانت السيارات نادرة في تلك الأيام، عام 1945 ، وكان الناس يرحبون بما توفر لهم لتأمين تنقلاتهم، سواء أكان ذلك „سيتيرن" بنزين أو شاحنة بضائع. كانوا يركبون بجانب السائق. المهم، أن الرجلين أشارا علينا بالوقوف وسألا إذا كان من الممكن أن نأخذهما معنا إلى دمشق، فقلت لهما „أهلا بكما ضيفان". وفي الطريق سألتهما عن سبب التوجه إلى دمشق، قال الأول إنهما ذاهبان للاشتراك في مناقصة لمستودعات الميرة (مستودعات الحبوب). لزمت الصمت ولم أعلق بكلمة. ولما وصلنا إلى دمشق سألاني „أين تريدنا أن ننزل من السيارة؟" فقلت لهما "سننزل معاً. أنا أتيت إلى دمشق أساسا للاشتراك في هذه المناقصة!" وفي مكان المناقصة وجدت بانتظارهما ثلاثة متعهدين دهشوا لما رأوني. سمعتهم يهمسون في غضب „من أين أحضرتم هذا المهندس معكما؟ ولماذا؟ إنه سيخرب علينا اتفاقنا". وبعد مشاورات فيما بينهم عرضوا عليّ مبلغ خمسة آلاف ليرة مقابل الانسحاب من المناقصة! وافقت طبعا. وهكذا سددت قيمة السيارة وكانت هذه الحادثة من أطرف ما حدث معي!

صاحبة الجلالة الصحافة

بدأ نجاحي في ميدان الهندسة والمقاولات يلقي بظلاله الإيجابية على وضعي داخل العائلة أيضا. صرت بشكل طبيعي ضمن النخبة في عائلة الأتاسي. وفي بداية العام 1945 استدعاني فيضي الأتاسي وأخبرني أنه قرر تغيير طبيعة مشاركته في الحياة السياسية وذلك بترشيح نفسه للمجلس النيابي، وهو يريد أن أكون الشاب الذي يعتمد عليه مع بعض شباب العائلة كي ندعمه ونشارك في حملته. من الطبيعي أنني شعرت بالغبطة، إذ أصبحت من الذين «يعتمد عليهم"، وكان أن قبلت القيام بالمهام المطلوبة مني، خصوصاً وقد كنت أكنّ لفيضي الأتاسي المودة والتقدير.

كان فيضي الأتاسي قد دخل ميدان الخدمة العامة مبكراً. كان في السادسة والعشرين من عمره عندما تعيّن محافظا لمدينة حماة. ثم تولى رئاسة بلدية حمص من 1931 إلى 1945. وكان حتى ذلك التاريخ تولى المنصب الوزاري ثلاث مرات. كان وزيراً للمعارف عام 1941 في حكومة حسن الحكيم، وتولى المنصب ذاته في الحكومة التالية التي ترأسها حسني البرازي، وفي عام 1943 وزيراً للمعارف والعدل والشؤون الاجتماعية في حكومة عطا الأيوبي. وبعد ذلك عين وزيراً مراراً في عدة حكومات، وتسلم وزارات مختلفة أبرزها وزارة

الخارجية، وكان أهم منصب يشغله هو وزير الخارجية في حكومة فارس الخوري عام 1954 في عهد رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي. وإضافة إلى تلك المهام كان له شأن في المجلس النيابي، وعندما ترشح لأول مرة كنت من أركان حملته، كما سبق القول. وكانت حملة منظمة بدأت عام 1945 لانتخابات ستجري بعد سنتين. ومنذ البداية كان في الحملة شيء من الحداثة، إذ اعتمدت على الإعلام كأحد ركائز المعركة الانتخابية.

أخبرني فيضي الأتاسي أنه حصل على رخصة جريدة سيصدرها في حمص اسمها „السوري الجديد" وأنه يرغب في أن يكون امتياز هذه الجريدة باسمي. وهكذا صدرت في حمص جريدة „السوري الجديد" باسم نادر الأتاسي رئيس التحرير وصاحب الامتياز. وعيّن الصحافي الشاب محمد الأزهري مدير الاخبار المسؤول.

هكذا أصبحت صحافياً من دون أن أكون قد خططت لذلك.

صدرت الجريدة وأصبح الناس يتخاطفونها في حمص ودمشق وحلب. كان فيضي الأتاسي ينشر في كل يوم مقالاً في الشأن السياسي، فيما بدأت أنا أكتب زاوية للتعليق على الأخبار.

لم أحترف الصحافة، ولم تدم علاقتي بالجريدة إلى ما بعد الانتخابات النيابية التي جرت عام 1947 والتي فاز فيها اثنان من عائلة

الأتاسي عن مدينة حمص: فيضي الأتاسي وابن عمه عدنان بن هاشم الأتاسي، وتكرر انتخاب فيضي الأتاسي في مجلس 1949 ثم 1954 وأخيراً في 1961. ثم اعتزل السياسة لكنه ظل يحظى بالاحترام والتقدير إلى وفاته عام 1982.

بعد تلك المرحلة العابرة، لم تعد لي علاقة بالصحافة سوى كقارىء. وخلال انغماسي بجريدة "السوري الجديد" لم أتوقف عن عملي في مجال الهندسة والمقاولات. بيد أن ذكرياتي الصحافية تحتفظ بقصة دخولي مجالاً آخر مختلفاً، أعني "مقهى الروضة".

مقهى الروضة

كان مقهى الروضة في حمص يدار من قبل البلدية. كان عبارة عن حديقة في الشارع الرئيسي في المدينة، وهي من أهم الحدائق تضم صالوناً فخماً إلاّ أن المقاعد والأرائك والطاولات أكل الدهر عليها وشرب، ربما أكثر مما أكل الزبائن وشربوا! كما كان الأثاث قديماً والخدمة سيئة. وكنت في كل أسبوع أكتب ملاحظة حول وضع المقهى في زاويتي بجريدة „السوري الجديد".

وفي أحد الأيام استدعاني محافظ حمص، عبد القادر الميداني، وكان في الوقت نفسه رئيساً للبلدية وسألني ما إذا كنت أتسلى بمهاجمة هذا المقهى؟ ولماذا؟ ومن يمكن أن يتولي إدارته اذا تركته البلدية؟ هل يمكن أن يستلمه أحد غير أصحاب المقاهي الأخرى الموجودة في المدينة، وهي ليست أفضل حالاً؟ فقلت له: „إطرح الأمر بالمزاد، وقد تجد من يتعهد المقهى ويهتم به". فاستجاب لرغبتي وأعلن في الجريدة عن المزاد.

في اليوم المحدد ذهبت إلى اجتماع المزاد وقلت للمحافظ بأنني سأضيف مبلغ ألف ليرة سورية على أعلى سعر يُدفع وأتولى استثمار المقهى. سألني: „هل ستعمل قهواتي؟" فأجبته بأنني أريد أن أجهز مكاناً أستطيع أن أحبه وأن أجلس فيه بهدوء ونظافة كما هو جارٍ

في دمشق وحلب، وهكذا استجاب لي وكان آخر عرض بـ 23000 ليرة سورية فقلت له أنا أتعهدها بـ 24000 فحصلت على عقد إيجار لمدة خمس سنوات. هكذا كانت بداية حكاية مقهى الروضة.

في اليوم الذي حصلت فيه على العقد ذهبت إلى دمشق. كان «مقهى الكمال» أفضل مقاهي العاصمة، يديره شخص من أصل مغربي يدعى كامل آغا، يعاونه ابنه الشاب أحمد متولياً إدارة المطبخ. فقلت له أريدك أنت وابنك أن تستلما مقهى الروضة في حمص. وكان تعليقه أن مقهى الروضة في حمص «شي فخم جداً». وبالفعل، جاء كامل آغا إلى حمص بعدما عيّن شخصاً يدير «مقهى الكمال» في دمشق، وبدأنا التحضير لافتتاح مقهى الروضة.

وما لبث هذا المقهى أن أصبح مقهى خاصا للعائلات لائقاً بهم، ويضم مطعماً يرتاده الناس لأناقته ونظافته وطعامه الشهي. وكان يقصده المسافرون من حلب إلى دمشق ذهاباً وإياباً. وانتشرت شهرته كمقهى ومطعم في حمص وعموم سوريا وكان كبار الشخصيات من رواده الدائمين.

وكما توقعت، حقق هذا المقهى النجاح المنتظر، وأصبح مكاناً أثيراً لدي أقصده كلما رجعت من أسفاري. كنت أجد في هذا المقهى الذي أحببته أصدقاء ينتظرون وصولي. كانوا يقولون لي نحن نعرف بوجودك في حمص من خلال مستوى الخدمة في مقهى الروضة!

فحين تكون أنت موجوداً أو ستصل من سفر، يصبح مستوى الخدمة ممتازاً ويخف ذلك بغيابك! حرصت على تفادي ذلك وأصبح مقهى الروضة يتحسن باستمرار. وكنت أقوم بتوسيعه شيئاً فشيئاً، كما كنت أضيف إليه في كل سنة شيئاً جديداً كمطعم الاكسبريس، وكان يشغل قسماً كبيراً من الطريق العام مما جعل أصحاب المطاعم الآخرين يتذمرون ويرفعون شكواهم إلى المحافظ محتجين على هذا التوسع السنوي!

وحدث أن حضر الرئيس أديب الشيشكلي ذات يوم لزيارة حمص. اجتمع به أصحاب المطاعم مطالبين بايقاف توسعي لأن مطاعمهم فقدت زبائنها وخفت أعمالها. وقد أرسل لي الشيشكلي قائد شرطة الجيش في ذلك الوقت جودت الأتاسي طالباً منه إبلاغي رغبته في لقائي لأنه مشتاق الي، فذهبت إليه في المقهى. وبعد التحية قال لي إن كل شي في هذا المقهى نظيف وجميل «فهل لك أن تخبرني ما هي حدود هذا المطعم وإلى أين سيصل؟» فضحكت وقلت له: إلى حماه اذا لم تعارضني! فضحك وقال «أوصله إلى حماه وحتى إلى حلب، لكن أرحني من شكاوى أصحاب المطاعم وجدْ حلاً لمشكلتهم». فأجبته «عندي الحل.. سأشارك الجميع في محلاتهم!» وهكذا أصبحت شريكاً في أكثر المطاعم الكائنة في الشارع الرئيسي في حمص، وكذلك مطعم البيروتي وجملة مطاعم أخرى كنت مشاركاً فيها أيضاً.

وذات يوم، في زمن الوحدة مع مصر، جاء إلى حمص عبد المحسن أبو النور. كان ضابطاً مصريا عمل قبل الوحدة كملحق عسكري في سفارة بلاده، ومع قيام الوحدة أعيد تشكيل قيادة الجيش السوري، فاستبعد الفريق عفيف البزري وعُيِّن اللواء جمال فيصل قائدا للجيش الأول والعميد عبد المحسن أبو النور معاونا له. والأخير كان عيِّن المشير عبد الحكيم عامر"الساهرة". تصادف يوم وصوله إلى حمص كان يوم جمعة. ومن شرفة الفندق نظر فوجد الشارع مكتظاً بالناس. وكان محافظ حمص يقف الى جانبه، فسأله عن هذه الجماهير التي تملأ الشارع وما هو سبب كثافتها بهذا الشكل؟ فقال له المحافظ "كل ما تراه في هذا الشارع من الجمهور يدفع ضريبة لشخص اسمه نادر أتاسي". فسأل عبد المحسن "يعني ده زي آل كابوني؟" فقال المحافظ: "لا.. إنه يملك ويشارك في كل هذه المحلات من مقاهي ومطاعم، وكل من يدفع فيها ليرة تذهب حصة منها إلى نادر الأتاسي".

استمر النجاح في مقهى ومطعم الروضة، وسواه من المقاهي والمطاعم، واكتسبت الخبرة في هذا الميدان، إلى جانب المال طبعاً، ولسوف أستثمرها في مطاعم أخرى في أماكن وأزمنة مختلفة. هكذا منطق الأعمال: المهم أن تدرس المشروع بعناية وأن تسهر على تنفيذه بشكل جيد. وفي حياتي لن أكتفي بالهندسة والتعهدات، وبالسينما، بل سأساهم في كل مشروع يمكن أن يحقق نجاحاً ما.

أما مقهى الروضة في حمص، الذي أحببته كثيراً، فلقد اضطررت إلى هجره وذلك بعد صدور القوانين التي ربما أريد لها أن تضمن حقوق العمال، فإذا بها تضيق الخناق على أصحاب الأعمال.

أم كلثوم والملك فاروق

مبكراً انضممت إلى جمعية المهندسين السوريين التي أصبحت فيما بعد نقابة المهندسين. وكنت في وفد الجمعية في أول رحلة إلى القاهرة العاصمة المصرية أقمت في فندق شبرد وهو غير فندق شبرد الحالي. كان أفخم فنادق القاهرة، بل والشرق. مبنى كلاسيكي فخم يعود إلى القرن التاسع عشر وله حديقة غناء وتراس أنيق. كان يقع في شارع ابراهيم باشا، „الجمهورية حالياً"، وهو الشارع المؤدي من محطة القاهرة للقطارات (باب الحديد) إلى حديقة وميدان الأزبكية. وفي موجة الحرائق التي اندلعت في العاصمة المصرية يوم 26 كانون الثاني/ يناير عام 1952، واستهدفت ممتلكات اليهود والأوروبيين، أتى الحريق على فندق شبرد ولم يعد صالحا للاستعمال فتم هدمه، ثم أقيم الفندق الحالي مطلاً على النيل. بيد أني سكنت فندق شبرد القديم قبل حرقه بسبع سنوات.

وكان لي اقرباء يقيمون في القاهرة ومنهم جميل الحسامي، زوج ابنة عمي الحاج عاطف الأتاسي. وفي أحد الأيام وصلتني إلى الفندق رسالة لم أهتم بها في بادئ الامر. وكم كانت دهشتي بالغة عندما فتحتها وإذ هي تتضمن دعوة لحفلة عشاء في قصر عابدين. وكان نص الدعوة كما يلي: „بأمر جلالة الملك فاروق الأول يتشرف كبير الأمناء بدعوة السيد نادر الاتاسي بك إلى حفل العشاء الذي يقام في

قصر عابدين بمناسبة أول اجتماع للجامعة العربية. وفي آخر الدعوة تذكير بأن المشاركة يجب أن تكون باللباس الرسمي والأوسمة. و لم أكن أملك لباساً رسمياً ولا أوسمة. وكنت مدعواً للغداء عند جميل الحسامي، وأثناء الوجبة قلت له، متظاهراً بعدم الاهتمام، بأنه وصلتني دعوة للعشاء بقصر عابدين، وأطلعتهم على الرسالة وقد أخرجتها من جيبي. دهشوا جميعاً وقال لي جميل „نحن نقيم هنا منذ عشرين عاما ولدينا أعمال وتجارة ومعارف ولم يتلقَ أحد منا هكذا دعوة! لذلك يجب تلبيتها". فقلت له "المشكلة أني لا أملك لباساً رسمياً ولا أوسمة". فأجابني بحسم „يجب ان نتدبر الأمر. لا تحمل هماً".

كان موعد العشاء بعد ثلاثة أيام فسعينا جميعاً بجد. كانت المشكلة المهمة متمثلة في الحصول على اللباس الرسمي. ذهبنا الى الاستوديوهات فوجدنا كل الألبسة من مقاس كبير جداً وأنا كنت في ذلك الوقت نحيل الجسم. وأخيراً حصلنا على المقاس المطلوب وكان طقماً لأحد العرسان وقد فصل لحفل زفافه "طقم فراك" فاستأجرناه لليلة واحدة بخمسة جنيهات. لبست الطقم ووضعت عليه شعار جمعية المهندسين السوريين واشتريت طربوشاً وحذاءً لماعاً من محلات شيكوريل، وأصبحت بكامل القيافة الرسمية مستعداً للتوجه إلى القصر الملكي.

كان صلاح شيخ الارض ضمن وفد جمعية المهندسين السوريين

أيضاً. وقد تلقى دعوة إلى القصر هو الآخر فقال لي „أنت حتما لن تستطيع شراء ثياب تليق بالمقام ولن أرافقك إذا ذهبت لأني أملك طقماً كاملاً“ فابتسمت وقلت له „سنلتقي هناك“!

وكان جميل الحسامي قد اهتم بالتفاصيل فأمّن لي سيارته الفخمة التي يقودها سائق حبشي. وصلت السيارة إلى أمام فندق شبرد، فخرجتُ باللباس الرسمي ورأيت صلاح شيخ الارض ينتظر تاكسي لكي يذهب. قال „خذني معك“ فقلت له „لا.. أنت يجب أن تذهب بالتاكسي! وكما قلت لك سنلتقي هناك!“.

حضرت الحفل في قصر عابدين وكان في استقبالنا جلالة الملك. كان الحفل فخماً، غنت فيه كوكب الشرق أم كلثوم أغنيتها الشهيرة آنذاك „زهر الربيع“ التي كتبها محمد الأسمر ولحنها الشيخ زكريا أحمد.

وفي صباح اليوم التالي، وقبل أن أعيد طقم الفراك لصاحبه، قصدت محلا للتصوير الفوتوغرافي وطلبت من صاحبه أن يصورني وأنا أرتدي ذلك الزي الرسمي.

طلعت باشا حرب

لمست أنا وأعضاء وفد جمعية المهندسين السوريين الحفاوة البالغة التي خصّنا بها زملاؤنا أعضاء نقابة المهندسين المصرية. جعلوا زيارتنا للقاهرة ممتعة ومفيدة. إضافة إلى المآدب العامرة، نظموا لنا جولات في أنحاء العاصمة المصرية. وفي شوارعها لفت نظري شيء ما. لاحظت وجوداً بارزاً لطلعت باشا حرب. أقصد آثاره الباقية في مشاريعه المتعددة. كان هذا الاقتصادي الكبير قد رحل عن دنيانا قبل أربع سنوات (عام 1941). كنت قرأت عنه وأنا في سوريا، وأعرف أنه يعتبر باني النهضة الصناعية والاقتصادية في مصر. وكنت معجباً بسيرته، لكن الإعجاب تضاعف عندما عاينت مشاريعه الناجحة.

كان طلعت حرب متعدد المواهب ومتعدد النشاطات. آمن بضرورة إنجاز نهضة مصرية فعمل على تأسيس „بنك مصر" وهو أول مصرف بروؤس أموال مصرية صرفة وبإدارة مصرية تامة. وشعر بأن حاجة مصر لا تقف عند حدود إنشاء بنك يقوم بالأعمال المصرفية التقليدية، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى رعاية الصناعة المصرية، فأسهم البنك في تمويل وإنشاء العديد من الشركات. معظم هذه الشركات لفت نظري، ويرد اسم مصر في كل واحدة: شركة مصر للغزل والنسيج، شركة مصر للنقل البري، شركة مصر للملاحة البحرية.. ومن دون أن أكرر الآن اسم مصر: للأسمنت،

للتجارة وصناعة الزيوت، للفنادق، للتأمين، للمستحضرات الطبية، وغيرها مثلها. بل وأنشأ „شركة بيع المصنوعات المصرية" منافسة لنظيراتها الأجنبيات مثل شيكوريل وبنزايون وشملا.

إضافة إلى ما سبق أسس استوديو مصر لتصوير الأفلام السينمائية. وكان أكبر استوديو في مصر والشرق. وبعد الاستوديو أسس شركة إنتاج الأفلام وهي الشركة التي أنتجت أفلاماً لأم كلثوم وعبد الوهاب. وكان استوديو مصر وشركة الانتاج التابعة له من ركائز صناعة السينما في مصر. أعجبت بطلعت باشا حرب وقررت أن أتخذه قدوة لي في مستقبلي وفي النشاطات التي كنت أنوي القيام بها.

ومن زميلي المهندس المصري المرافق علمت أن طلعت حرب كان يعمل 15 ساعة في اليوم، وأنه اشتغل في الصحافة في مطلع حياته المهنية وأنه ألف كتابا بعنوان „علاج مصر الاقتصادي" سألت عنه في المكتبات واشتريت نسخة قرأتها لاحقاً بشغف كبير.

آنذاك كان الشارع الكائن في منطقة وسط البلد في القاهرة يدعى سليمان باشا والميدان كذلك وبه تمثال له. سليمان باشا نسبة إلى الضابط جد الملكة نازلي، زوجة الملك فؤاد وأم الملك فاروق. وهو اشتهر بلقب سليمان الفرنساوي أيضاً، لأنه بالأساس ضابط فرنسي يدعى جوزيف سيف Joseph Sève جاء إلى مصر مع جيش نابليون وبقي في مصر بعد الحملة واعتنق الاسلام. بعد سقوط الملكية في

مصر عام 1952 وقيام الجمهورية، أزيل تمثال سليمان باشا من الميدان واسمه أيضا كما من الشارع، وأصبح الشارع والميدان يحملان اسم طلعت حرب واحتل تمثاله وسط الميدان إلى يومنا هذا.

العودة عبر مطار اللد

كنت مستعجلاً في العودة إلى سوريا في ختام الزيارة، فيما فضل بعض الزملاء تمضية أيام عطلة إضافية في القاهرة. توجهت إلى محطة السكك الحديدية لحجز بطاقة العودة بالقطار وكنا وصلنا إلى القاهرة عن طريق البر وكانت القطارات وسيلة المواصلات السائدة. يعبر القطار بنا الساحل الفلسطيني ثم شبه جزيرة سيناء إلى بورسعيد ومنها يركب المسافرون قطارا آخر ينقلهم إلى القاهرة. في رحلة المجيء أرسلوا لنا قطاراً ملكياً خاصاً أوصلنا إلى القاهرة. لكنني عائد وحدي الآن من دون الوفد. فوجئت باستحالة السفر بسبب إضراب عمال السكك الحديدية!

كان الجو السياسي مضطرباً في القاهرة آنذاك. لم يكن قد مضى أكثر من شهر ونيف على اغتيال رئيس الحكومة أحمد باشا ماهر في مجلس النواب وقد خلفه النقراشي باشا، لكن الأزمات الاقتصادية ظلت مستمرة، كانت الحرب العالمية الثانية توشك على الانتهاء لكنها لم تكن قد وضعت أوزارها بعد. وكانت قد تركت آثارها السلبية في المجتمع كغلاء الأسعار وتدني الرواتب بسبب تدني مداخيل الشركات، وقد أدّى ذلك إلى أن كثرت إضرابات العمال في قطاعات مختلفة ومنها على حظي إضراب عمال القطارات!

اقترح جميل الحسامي أن أعود إلى دمشق بالطائرة. كان لديه صديق يملك طائرة تتسع لستة ركاب ويستطيع أن يوصلني بها مع خمسة ركاب آخرين إلى مطار اللد في فلسطين، على أن أستقل سيارة من هناك إلى سوريا. كان النقل الجوي في بداياته، فما بالك بالطائرة الصغيرة التي يمكن أن تصير كالريشة في مهب الريح؟ اتكلت على الله وقررت أن أخوض المغامرة. وكانت أول مرة في حياتي أستقل فيها طائرة. وربما كان ذلك هو السبب الذي جعلني لا أشعر بالخوف. المهم ركبت الطائرة مع خمسة آخرين، وأقلعت.

في الجو بدأ الخوف، قلْ الهلع. كان الطقس سيئاً والريح تتلاعب بهذه الطائرة الخفيفة، وكان بين الركاب الستة رجل أصبح وجهه أزرق اللون وآخر بكى وقرأنا جميعا آيات من القرآن الكريم. وبحمد الله وصلنا إلى مطار اللد بسلام. وأخبرني قائد الطائرة بأننا قد نجونا بمعجزة. خرجت من المطار وكان لدي عنوان الفندق الذي سأقيم فيه في يافا، كما كنت مزوداً بما يلزم من المعلومات عن المطاعم والأماكن التي أستطيع أن أزورها. تناولت عشائي في مطعم عربي راق وكانت الوجبة ممتازة. عدت إلى الفندق وبدأت أقرأ كتاب طلعت حرب. كنت أتصور أنني سأقرأه في الطائرة، لكن بالنظر إلى الأحوال الجوية لم أتمكن من قراءة سطر واحدا

وفي اليوم الثاني ركبت سيارة اتجهت بنا عبر نابلس فالجليل فسوريا. وبعد استراحة ليلة في دمشق، تابعت سفري إلى حمص.



وفقا للبرنامج الذي قررته بعد عودتي من القاهرة، باشرت بتأسيس شركات للتعهدات وأدخلت معي شركاء بروؤس أموال تناسب انطلاقتي. خلال سنة فزت بمجموعة من التعهدات بمبالغ كبيرة لانشاء أبنية عديدة، ذلك أني حولت اهتمامي من تعهدات الطرق إلى انشاء المباني عن طريق الشركات التي أسستها، والتي كانت كلها تدار برناستي. التزمت بناء دار الحكومة في حمص ودار الحكومة في حماه ومركز الهاتف الآلي في حلب ومعمل السكر في حمص، إضافة إلى مشاريع اخرى أطلقتها كلها خلال ثلاث سنوات، وعن طريقها

استطعت أن أؤمن الرأسمال اللازم لمباشرتي المشاريع الأخرى.
واستمر نشاطي في أعمال التعهدات بحيث أصبحت بمرور السنوات وعبر شركاتي أكبر متعهد في سورية وأحد أكبر المتعهدين في العالم العربي. وفي ختام هذا الكتاب ملحق يعرض أهم المشاريع التي نفذتها في مجال الهندسة والتعهدات.

في تلك الفترة، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حدث في سنة 1947 انخفاض في أسعار المواد المستعملة في تنفيذ الأعمال كالحديد والإسمنت وسيارات النقل وكل مواد البناء بحوالي الخمسين بالمئة، مما سمح لي بأن أحقق أرباحاً هائلة في المشاريع التي كنت قد التزمت بها والتي أعددتها سابقاً وهي مشاريع كبيرة ويحتاج تمويلها الى مبالغ ضخمة. لكن هبوط الأسعار بهذا الشكل اضطر الحكومة السورية إلى الطلب من المتعهدين تخفيض أسعارهم، كما هي العادة في الحالات المشابهة، لكنها استثنت المشاريع التي وقعت عقودها وبوشر العمل بها فحماني هذا القرار إذ استطعت إكمال مشاريعي بالمواد ذات الأسعار المخفضة، وهذا حقق لي خلال ثلاث سنوات أرباحاً كبيرة والحمد لله.

وتابعت تنفيذ الأعمال حتى أصبحت مرموقاً وكان الناس يعاملونني وكأني كبير المتعهدين وأطلقوا علي اسم المهندس الشاب والمليونير الشاب! والتصق بي لقب المليونير الشاب قبل أن أجمع المليون، ولم أحاول تكذيب المقولة بل عملت على أن أحوّلها إلى حقيقة.

بيتي في حمص

كان تنفيذ المشاريع الضخمة التي التزمتها والتي حققت لي مكاسب يتطلب توفر سيولة مالية في صندوق الشركة، لأن تحصيل المستحقات عن المشاريع السابقة يتم ببطء، والشركة محتاجة دوما للمال لتنفيذ المشاريع الآنية. مررت بفترة لم يكن فيها الرأسمال المطلوب في حوزتي، فاقترح والدي أن يبيع بيته القديم الذي كان يملكه في حي باب المسدود في حمص. أثرت فيّ نخوة والدي إذ كان يكنّ لأولاده الحب الكبير. بعنا البيت بمبلغ 16000 ليرة سورية، أنفقتها على المشاريع الضخمة التي كنت في طور تنفيذها، لكني وعدت الوالد بأن أبني له منزلاً لا مثيل له في حمص ولا في عموم سوريا.

نفذت الوعد عام 1948 وكنت تعاونت في وضع التصاميم مع مهندس بارع وصديق لي من طرابلس اسمه غاستون حبيب. الجدير بالذكر أن أسعار الأراضي ارتفعت في تلك المنطقة عند معرفة الناس بشرائي الأرض وبرغبتي في بناء الدار عليها. وباشرت بالبناء بعد اكتمال المخططات وكنا نستعمل المواد التي جلبناها للمشاريع من رخام وغيره. وخلال سنة كان المنزل قد اكتمل في أبهى حلة. أضفت إلى الدار أشياء لم تكن ملحوظة في ذلك الوقت كالشوفاج

سنترال (التدفئة المركزية) ولم يكن قد استعمل في حمص بعد في أي بيت، كذلك وضعنا الأباجورات السحاب Stores Roules وغيرها من الأشياء الحديثة جداً، وكانت أبواب البيت كلها موبيليا. أصبح المنزل بجماله من معالم المنطقة التي أصبحت تعرف باسم "بيت نادر الأتاسي". وكانت النتيجة أن أصبح البيت، خصوصاً في أيام الشتاء والثلج يكسو حمص، ملجأ لطالبي الدفء. وأذكر أنه عندما عاد أخي الدكتور جمال من فرنسا مع زوجته بعدما نال الدكتوراه في الطب النفسي، استقبلناه في المنزل في حمص. كان الناس يأتون للسلام عليه ويجدون الجو الدافىء داخل البيت والصقيع في الخارج فيغتنمون الفرصة للمكوث أطول مدة ممكنة فيغص البيت بالزوار.

ظلت روح العائلة السعيدة المجتمعة تخيم على هذا البيت وفيه اكتمل عقد العائلة المؤلفة من ستة أشقاء لا شقيقة لهم. وكنا سعداء، سوى أن الوالدة كانت تتمنى لو أضيفت إلى هذه المجموعة شقيقة تزيد من زينتها وتضفي عليها البهجة.

حسني الزعيم يعتقلني

سنة 1949 حصل إنقلاب في سوريا عرف بـ "انقلاب حسني الزعيم". استولى قائد الجيش حسني الزعيم على مقاليد الحكم في سوريا، وبدأ باضطهاد كل السياسيين المخالفين لرأيه ونهجه، حتى المستقلين منهم لم يسلموا من الأذى! اعتقل مجموعة من السياسيين المعروفين في ذلك الوقت مثل فيصل العسلي رئيس الحزب التعاوني الاشتراكي الذي كان هاجم الجيش في جلسة مغلقة لمجلس النواب، وعدداً من أركان حزب البعث وأحزاب أخرى لم تكن تؤيد سياسته أو خطوته.

وكنت في جملة من اعتقلوا مع أنني حيادي لا أنتمي إلى أي حزب، برغم الدعاية التي راجت عني من قبل البعض الذين أطلقوا عليّ صفة (شعثي) أي شعبي وبعثي مندمجين معاً! ولعل مصدر الدعاية أنني كنت على صلة وثيقة بفيضي الأتاسي، وهو من مؤسسي "حزب الشعب" مع عدنان الأتاسي ورشدي الكيخيا وناظم القدسي ومعروف الدواليبي وسواهم، إضافة إلى أن شقيقي جمال الأتاسي كان من مؤسسي "حزب البعث" إلى جانب صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق. (في 1963 هجر حزب البعث وكان وزيراً للإعلام وأسس حزب "الاتحاد العربي الاشتراكي" المؤيد للزعيم المصري جمال عبد الناصر). وبالمناسبة أذكر أنني طول حياتي لم أنتمِ إلى

أي حزب، مع وجود أقارب وأصدقاء في مختلف الأحزاب، ليقيني أن السياسة ليست لعبتي ولا هوايتي، وإنما أنا رجل أعمال واختصاصه هندسة وسينما ومقاولات. وفي هذه الميادين أستطيع أن أخدم نفسي ومجتمعي.

حدث في عهد حسني الزعيم أنني كنت في بيتي في حمص حين قدمت مفرزة من شرطة الجيش وقامت باعتقالي وقادتني إلى موقع المحافظة ومنها بسيارة شحن عسكرية إلى دمشق التي وصلنا إليها ليلاً. وبالرغم من أن لي أصدقاء في الجيش، ومنهم بعض المقربين من الزعيم، لم يحمني ذلك من الاعتقال، بل لم تتح لي الفرصة لأقابل أياً من أصدقائي الذين كانوا في الحكم حينذاك، وخاصة قائد الشرطة العسكرية.

أدخلوني ضمن مجموعة من ستة شباب اقتيدوا معي إلى سجن المزة، وكان بإدارة ضابط أذكر أن اسمه الأول: عزت. وصلنا إلى غرفة عزت هذا وكان متجهم الوجه يحاول فرض هيبته على الموقوفين فصرخ بنا: "إنزعوا ربطات العنق وقفوا بالصف هنا وليعطني كل منكم إسمه وتاريخ ميلاده". كان العنف متجلياً بشكل واضح في نبرة صوته. وفي هذه الأثناء رنّ جرس الهاتف وإذا بالمتكلم أحد ضباط الجيش آنذاك وهو قريبي فيصل الأتاسي الذي كلمني وأخبرني أنه سيوصي عزت بي كي يرتب لي ما أحتاجه. وبالفعل انقلب وضع عزت رأساً على عقب وتغيرت معاملته وبدا لطيفاً كأنه صديق انتحى بي

جاننا وقال لي "أرجوك حين تخرج من هنا. وستغادر حتماً لما لك من علاقات. لن توصي فيصل ابن عمك بي خيراً وهو رئيس الشعبة الاولى التي بيدها ترقية الضباط وتشكيلات الجيش". وعدته خيراً فسألني "أين تريد أن أضعك؟" فقلت له مع الذين اعتقلوا في اليوم السابق، ميشيل عفلق وصلاح البيطار" وكنت أعتقد بأن البعثيين لن يمسهم أي أذى في السجن فقال لي "انتقِ غير هذا"! وفهمت ما يقصد حين فتح الباب فشاهدت هؤلاء السياسيين والضباط وقد تم قص شعر رؤوسهم على الصفر وهم يقومون بمسح الأرض وأعمال التنظيف. فقلت له "ضعني في مكان مناسب، وأعرف بأنك ستتوصى بي بعد اتصال فيصل بك" فأجابني: "سأضعك في زنزانة واحدة مع حافظ الجمالي وهذا صديق للمقدم إبراهيم الحسيني قائد الشرطة العسكرية واستخبارات الجيش" وهكذا كان.

تأثرت جدا حين رأيت بعض الأصدقاء من ضباط وسياسيين تهان كرامتهم ويعاملون تلك المعاملة السيئة، وودت لو كان بالإمكان مساعدتهم ورفع الضيم عنهم، لكن ما باليد حيلة. قضيت الليلة في سجن المزة ولم يعاملوني كما الآخرين، بل إن فيصل الأتاسي أرسل لي بعض المأكولات. مع ذلك لم يغمض لي جفن حتى الصباح الباكر. في اليوم التالي جاء إبراهيم الحسيني إلى السجن واستدعاني وقال: "لماذا تتصرف تصرفات تجعل الزعيم يغضب منك ويقرر توقيفك؟ إني أريد منك إصدار بيان يفيد بأنك غير منتسب لأي حزب وأنك تؤيد

الزعيم حسني الزعيم". نُصحت بعدم إصدار مثل هذا البيان لأني معروف بكوني غير حزبي ولا أتعاطى السياسة، وأردفت قائلاً: "إذا صدر مثل هذا البيان تكونون قد أعطيتموني طابع الرجل السياسي وأنا رجل أعمال ومتعهد". بدا عليه أنه اقتنع بوجهة نظري فصرف النظر عن إصدار البيان وقال لي بأنه سيفرج عني على مسؤوليته شرط أن أعده بعدم ممارسة السياسة، وبشكل خاص أن لا أذكر أي شيء مما شاهدته في السجن، فوعدته وأطلق سراحي إثر ذلك واستمرت إجراءات الإفراج حتى بعد ظهر ذلك اليوم.

حين غادرت السجن ذهبت إلى الفندق الذي اعتدت أن أقيم به في دمشق وفي المساء ذهبت الى مقهى الفاروق الكائن في شارع بغداد وإذ بصديق يدنو مني، هو عبد الرحمن ماردیني (الذي أصبح فيما بعد محافظاً لمدينة دمشق) وقال لي: "الأصدقاء مشتاقون إليك كثيراً ويرغبون في رؤيتك". فأجبته بعفوية "لا تقل لي أصدقاء وما شابه. أنا قطعت وعداً بأني لم أشاهد شيئاً هناك، كما تعهدت بأن لا أتدخل بالسياسة، وقد أفرج عني على هذا الأساس". فقال لي مطمئناً: "أقسم لك بشرفي أن تكون الجلسة في بيت البيطار، إبن عم صلاح البيطار على ما أظن، جلسة بسيطة جداً ولن يكون هناك أحد غريب". أصر عليّ فذهبنا إلى حي الميدان، وإذ بالحي أمام البيت مزدحم بالناس فأيقنت أني أكلت الضرب! طلبوا مني معرفة ما شاهدته في السجن وقلت أنا لم أرَ شيئا، فأقسموا بالله العظيم بأن ما سأرويه لهم لن

يعرف به أحد. فاضطررت تحت إلحاحهم الشديد أن أخبرهم عن وضع السجناء وأنه ليس بالجيد، وتركتهم على هذا الأساس.

توجهت صباح اليوم التالي من الفندق إلى المقهى كالعادة فوجدت مناشير كتب فيها بأن أحد الذين غادروا سجن المزة أخبرنا عن وضع المعتقلين السياسيين وعن حلق شعر رؤوسهم. أي أن حضور سهرة الأمس سرّبوا فحوى الحديث ولم يحفظوا السرّ برغم الوعد والقسم! أيقنت بأنني سأصبح مستهدفا من جماعة حسني الزعيم، لذلك لم أكمل مشواري الى المقهى بل عدت إلى الفندق، دفعت الحساب وطلبت سيارة تاكسي. عندما سألني السائق "إلى أين؟" قلت له "إلى بيروت!".

مكثت في العاصمة اللبنانية أنتظر الفرج. وكنت على اتصال بالأصدقاء في سوريا. إلى أن جاء من يخبرني بأنني لست المشتبه به الأوحد، ذلك أن آخرين خرجوا من سجن المزة أيضا، وليس بالضرورة أن تكون أنت الوحيد الذي أفشى السر. ومع ذلك أصرّ محدثي على تحذيري قائلا: "بوسعك أن ترجع إلى حمص وأن تمارس نشاطك المعتاد في الهندسة والمقاولات، لكن حذار فالعين محمرة عليك!".

عدت إلى حمص وإلى العمل. أعلن عن مناقصة لإكمال دار الحكومة في حمص، المرحلة الثانية من المشروع. تقدمنا بملف ورست علينا المناقصة لتقديمنا أفضل الأسعار، وقد ساعدنا في ذلك أننا كنا قد

شهدنا هيكل البناء في مرحلته الأولى، وما زال العمال والموظفون حاضرين، والترتيبات اللازمة لتنفيذ مشروع الإكمال قائمة.

ذهبت الى وزارة الأشغال في دمشق حيث جرى توقيع العقد، وبتنا ننتظر أمر المباشرة بالعمل. مرّ أسبوع وأكثر ولم نسمع شيئا. كان من المفروض أن تعرض نتيجة المناقصة على وزير الأشغال لتصديقها، وكان الوزير فتح الله صقال من حلب، وكنت أنا مطمئناً الى سير العملية حيث أنه لا سبب ظاهر لعدم تصديقها. بيد أني فوجئت بصديق لي في وزارة الأشغال العامة يبلغني بأن الوزير رفض توقيع الإضبارة وطلب إعادة المناقصة، وقد شرح الأسباب الموجبة لاتخاذ هذا القرار بأن نادر الأتاسي متعهد لا يؤيد سياسة حسني الزعيم وهوّ بنى في حمص منزلاً أحسن من بيت حسني الزعيم! وكتب حاشية "ترفض وتعاد المناقصة".

لم أنم تلك الليلة بتأثير هذا الخبر. كانت تربطني علاقة جيدة بالوزير، لكني كنت مدركاً أن الأمر ليس بيده، وأن هذه النكايات من شغل حسني الزعيم. وفي الصباح الباكر ركبت سيارتي متجهاً إلى دمشق. كانت يومها سيارة بويك لونها سماوي. ولدى وصولي إلى منطقة القطيفة مرت بجانبي سيارة أعرفها جيداً لونها ليموني، تخص العقيد زياد الأتاسي. وكنت أعرف أنه قد سرح من الجيش وقد فوجئت برؤيته باللباس العسكري ويقود سيارته بسرعة باتجاه حمص،

أوقفت سيارتي بكابح قوي وكذلك فعل هو، ورجع باتجاهي ونزل من سيارته وهجم علي وقبلني قائلاً: „أبشّرك! ربّحناها! صلّيتناه" فقلت له „من ؟" قال „حسني الزعيم انتهى. أنا الآن ذاهب إلى حمص كي نأتي بهاشم بك الأتاسي لاستلام مقاليد الحكم وأرى أن تحضر معنا إذ أن هاشم بك يتأثر بآرائك" فقلت له "وجودكم كاف. اذهبوا وأكملوا مهمتكم. أما أنا، فلديّ مسألة ضرورية في دمشق يجب أن أنجزها". تابعت طريقي وعندما وصلت إلى دمشق توجهت فورا إلى وزارة الأشغال العامة. كان الوزير قد هجرها، فذهبت الى غرفة الأمين العام وقلت له: „أين القرار الذي كتبه الوزير؟ وبأي حق يلغي المناقصة؟" فاستجاب لرغبتي وسحبنا الملاحظة التي كان الوزير قد وضعها وتركنا الأضبارة من دون تلك الملاحظة البائسة. وبعد ذلك اجتمعت اللجنة في الوزارة بغياب الوزير ووافقت على المناقصة.

في الشأن السياسي تولّى العقيد سامي الحناوي، قائد الانقلاب على حسني الزعيم، مقاليد السلطة والرئاسة. أما رئاسة الحكومة فأسندت إلى هاشم الأتاسي. وفي هذه الحكومة عيّن ميشيل عفلق وزيرا لأول مرة (وزير المعارف) ومثله أكرم الحوراني الذي تولى منصب وزير الزراعة. وفي هذه الحكومة كان فيضي الأتاسي وزيرا للإقتصاد الوطني.

على ضفاف دجلة

شهدت سورية في الخمسينيات من القرن الماضي سنوات من الرخاء والانتعاش في مختلف القطاعات. وفي عام 1953 جاءني أرنست شهاب، رفيق دراستي، إذ كان هو "الماجور" أعني المقدم في كلية الهندسة في بيروت وكنا في الصف نفسه، وبعد تخرجنا ذهب كل في طريقه ومضت عشر سنوات لم أره فيها مرة. وفي هذه الزيارة قال لي: " سمعت بما حققته من نجاحات وكثيرون يستفيدون منك في أعمالهم وأنت لا ترد طلب مساعدة. الآن جاء دوري. لدي مشروعٌ أرجو أن تدعمني في تحقيقه سواء بالشراكة أو بمساعدتي للانطلاق به وحدي". فطلبت منه شرح المشروع وقلت له: "إذا أعجبني فسوف أشاركك به في التمويل والأرباح، وتتولى أنت إدراته". أخبرني أن المشروع في بغداد وأن شركة كتانه التي تملك وكالات لبيع سيارات في العراق ترغب في تصفية أعمالها هناك ولا تطلب أسعاراً باهظة في المقابل. ومن دون أن يلتقط أنفاسه استطرد يقول إنه درس المشروع جيدا وهو واثق في جدواه لصالحنا سوية، فطلبت منه مهلة لدراسة الموضوع ووعدته خيراً.

إتصلت بإدارة الشركة التي كان يعمل بها قبل صرفه سائلاً رأيهم في أرنست شهاب، فكان سلبياً! وحذروني من العمل معه لعدم أمانته! استغربت ذلك وشكرتهم، ثم دعوت أرنست للاجتماع وواجهته بما قيل عنه من أنه حرامي وأنه سرق الإيرادات التي كان يجمعها. بهدوء ملفت للنظر، شرح لي أن ما قيل عنه غير صحيح، فهو بدأ فعلا بقبض الإيرادات ووضعها في جيبه بعد أن شعر بأنهم هم الذين يسرقونه

إذ كانوا يخفون عليه حقيقة الأرباح ويمتنعون عن دفع حصته، فلجأ الى تأمين نصيبه عن طريق آخر. عندما أفهمته أنني لا أقر هذا التصرف في التجارة، فإن كان شريكك لصاً فليس معنى هذا أن تسرقه أنت أيضاً! وأضفت قائلا: "لكن لكونك لجأت إليّ وشرحت لي الأسباب التي دعتك لمثل ذلك التصرف، فسأعطيك فرصة لتثبت لي أمانتك، وأنا لا يمكنك سرقتي! لذلك، قررت الموافقة على مشاركتك في المشروع، فهيء نفسك وسنتوجه سوية الى بغداد".

حصلنا على تأشيرة الدخول إلى العراق واتصلت بشريك لي في مشاريعي في سورية اسمه رئيف فوان، وكان يعمل آنذاك في شركة تعهدات تبني جسراً في بغداد، وطلبت منه أن يحجز لي غرفة في فندق مناسب فقال لي بأن فنادق بغداد "ليست على المستوى الذي تعرفه في دمشق أو القاهرة أو بيروت"، لكنه سيحاول تأمين الفندق الأكثر توفيرا للراحة.

قررنا السفر بسيارتي (كانت آنذاك كاديلاك خضراء) وذلك عن طريق المفرق بالأردن ثم نجتاز الصحراء إلى بغداد. وكان السفر يبدأ مساء قبل المغرب ونسير خلال الليل بحيث نصل بغداد في الصباح. إضافة إلى أرنست شهاب، اصطحبت محاميّ الأستاذ ظافر الموصلي.
وصلنا صباحاً الى فندق الرشيد في بغداد فوجدت صديقي رئيف فواز بانتظاري فدعانا إلى العشاء تلك الليلة في أحد مطاعم بغداد المنتشرة في شارع أبو نواس على ضفاف نهر دجلة، والشهيرة بشيّ السمك المسجوف (تلفظ الجيم على طريقة أهل مصر) وهو طبق شهي جداً.

لم تكن هناك صعوبات في إيجاد المعلومات التي كنت أرغب بالحصول عليها، وبقينا هناك نحو أسبوع أسست فيه شركة أسميتها "الشركة الشرقية" Orienco أدخلت فيها السيد ماجد مصطفى الذي كان معتمداً من قبل شركة كتانه، وهو إنسان دمث الخلق وكان وزيراً سابقاً للاقتصاد في العراق. ولم نقم بشراء وكالة السيارات من آل كتانه لأنهم كانوا قد باعوها قبل وصولي إلى العاصمة العراقية. وسلمت إدارة الشركة الى أرنست شهاب المشهور منذ كنا في كلية الهندسة بتنظيم البرامج والمخططات بدقة وإتقان واستأجرنا مكتباً للعمل فيه على بركة الله.

عدت من بغداد إلى دمشق وكان أول عمل قمت به أن عينت شخصاً كان يعمل معنا في لبنان إسمه أحمد زغلول كمحاسب للشركة ومؤتمن على أموالها. كان رأسمال الشركة حوالي 40000 دينار عراقي دفعتها كلها عن بقية الشركاء ووزعتها أسهماً بيني وبينهم واحتفظت بـ 51 % من الاسهم بإسمي.

كانت أجواء العمل مريحة في بغداد. وكان المشهد السياسي مضطرباً نوعاً ما برغم الهدوء الظاهر. لمست أن العراقيين يحبون الملك فيصل الثاني، وكانوا أحبوا أباه الملك غازي وجده الملك فيصل الأول، لكنهم ما كانوا يطيقون الذي كان لفترة قريبة الوصي على العرش، وأقصد الأمير عبدالإله. كان الملك فيصل قد بلغ الثامنة عشرة في الثاني من أيار 1953 فجلس على عرش العراق رسمياً. وتزامنت بداية أعمالنا في العراق مع بداية عهد الملك فيصل الثاني. كانت الحكومات تتعاقب ولا تعمر طويلاً. في بداية 1953 استقالت حكومة نور الدين محمود

وأعقبتها حكومتان متتاليتان برئاسة جميل المدفعي. وحتى صيف 1954 كان العراق شهد حكومات أخرى برئاسة محمد فاضل الجمالي ثم أرشد العمري ومن بعده نوري السعيد، رجل العراق القوي.

في 14 تموز 1954 تزوجت من نهى محمد حسن كبارة، وظلت . حفظها الله . قرينتي العمر كله شاركتني حياتي بكل ألوانها. في تلك الفترة . في صيف 1954 . كانت شركة بغداد تشغل بالي، فقررت السفر وعرضت على زوجتي نهى أن ترافقني. ولكي أريحها من عناء السفر الطويل بالسيارة، ركبنا الطائرة هذه المرة. في المطار استقبلنا محامي الشركة وماجد مصطفى وقضينا أسبوعاً في بغداد كانت نهى فيه موضع ترحيب من زوجة ماجد مصطفى وهي امرأة مثقفة وممتازة، وأيضاً من زوجة نوري السعيد. واضطرت نهى ومسايرة للتقاليد هناك أن تلبس العباءة لكي تزور الأماكن المقدسة وتغطي رأسها أثناء التجوال في المدينة مع العائلات. وقد دعيت من قبل جمعية من السيدات إلى جلسة تعارف وفي تلك الجلسة سألوها "شو تلعبين ؟ " وهم يقصدون لعب الورق والقمار من بوكر وما شابه، فأجابتهم بأنها تجهل كل هذه الألعاب ولم تمسك بحياتها ورق اللعب وقضت أياماً سعيدة شعرت خلالها بالحمل بابنتنا الأولى إيمان.

أعود الى عمل الشركة فقد قرر المجتمعون البدء بمشروع إنشاء معمل البلاط وأطلعوني على دراسة أعدها مقاول لبناني، فتوكلنا على الله، وأمنت لهم ما يلزم للمباشرة في العمل وكان ذلك أول مشاريع الشركة. وخلال إقامتنا في بغداد وصل الصديق فرنان خوري وكان قد التزم إنشاء معمل السكر في الموصل وهو محتاج إلى شركاء يمثلونه محلياً ويدعمونه فلجأ إليّ باعتباره كان يعمل عندي في

بناء معمل السكر في حمص وطلب مشاركته في هذا المشروع، وهكذا توالت سلسلة التعهدات في العراق.

كانت أرنست شهاب طيلة هذه الفترة يقوم بالاتصالات مع الشركات الأوروبية ويعرِّف بشركتنا وقدرتها على فتح أسواق جديدة لبضائعهم. وكانت نتيجة هذه الاتصالات حصولنا على عدد كبير من الوكالات الحصرية لشركات كبرى في فرنسا لتمثيلها. ولم يكن هذا الأسلوب معروفاً في العراق، فاستغل المناسبة ووقع عقوداً مع General Electric و Société Genérale وغيرها.

وأصبح مكتب بغداد محور نشاط كبير. فرع للهندسة والتعهدات، وفرع للتجارة والاستيراد وتمثيل كبرى الشركات. وحتى ذلك الوقت لم نكن نقبض شيئاً وكنت أدفع جميع المصاريف، حتى وصل وقت طلب مني فيه ماجد مصطفى أن أكف عن الدفع حتى لا تضيع هذه الأموال سدى. لكني استمريت في التمويل حتى جاءني أرنست شهاب طالباً القيام بجولة في أوروبا لجمع ما استحق لشركتنا من أموال وعمولات لقاء قيامها بالترويج لهذه المنتجات. وفعلا، بدأت الأموال ترد إلينا وقد غطت جميع المصاريف التي كنت قد دفعتها حتى ذلك الحين.

وانطلق فرع التعهدات بتنفيذ مشروع معمل السكر في الموصل. كان أخي خلدون تخرج في كاية الهندسة في حلب فاستدعيته للإشراف على تنفيذ التعهدات فجاء إلى العراق مع مهندسين من سوريا أحدهم جورج قنواتي وهو من حمص ورامي الأتاسي ومدراء ورش عملوا بجد ووصلوا الليل بالنهار. وأثبتت الشركة الشرقية للهندسة في بغداد أنها من كبرى الشركات في مجالي التعهدات والتجارة.

خدمة العلم

في عام 1957 دعيت وأترابي من مهندسين وأطباء وغيرهم من أصحاب المهن الحرة إلى التقدم لخدمة العلم. كانت مدة الخدمة آنذاك سنة واحدة تبدأ بشهر من التدريب يعقبه 11 شهراً خدمة في الجيش. اعتذرت عن الالتحاق بسبب المشاريع التي كنت أقوم بتنفيذها وطلبت التأجيل وتمت الموافقة عليه لمدة سنتين. وبحسب النظام المعمول به، لا يُسمح بالتأجيل مرة أخرى بسبب بلوغي الأربعين من العمر عندئذ ولا بد من الإلتحاق فوراً بالثكنة.

عند ذهابي إلى الفحص الطبي وجدت الطبيب المسؤول وبيده إقرار يسجل فيه صلاحية المجند الطبية أو عدم صلاحيته، فقلت له: "أي فائدة تجنون من تجنيدي في الجيش؟ مثلي مئات من المهندسين في الخدمة ويمكن أن تستعيضوا عني بواحد منهم براتب 300 ليرة. أما إذا أعفيتموني، فسأقدم مستشفى نقالا هدية للجيش، وبذلك أكون خدمت بلادي والجيش وأعود لمباشرة تنفيذ أعمالي في انشاء مصفاة للبترول في حمص". إقتنع الطبيب العقيد وأجرى لي فحصاً طبياً أظهر وجود اهتزازات قلبية - وبالفعل هذا ما كنت أشكو منه - كما قال بأن لدي قصورا في الكبد. وبناء عليه أعفيت من الخدمة. لم ينسَ أن يأخذ مني تعهداً بتقديم سيارة مستشفى نقال للجيش. توجهت إلى

حمص وأبرزت للمسؤولين أوراق إعفائي من الخدمة. لفتت القضية أنظار الكثيرين في دمشق وحاولوا التشبه بما فعلت، لكن لم ينجح بذلك سوى شخص واحد فقط، موفق الميداني، كان بالفعل يعاني من مشكل صحي. وقد دفع مبلغاً كبيراً للتساهل معه في مسألة الإعفاء.

وبعد سنة تغير الحكم في سوريا، بل وتغير اسم الدولة ونظامها، إذ أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا وقامت الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر، وكذلك تغير الطبيب العقيد الذي أعفاني وسُرِّح من الجيش. جاء خليفته - وكان على علم بموضوع إعفائي . وأصدر قراراً جديداً بإعادة الفحص الطبي لكل المعفيين صحياً. والحقيقة بأن كل هؤلاءً كانوا معتلين فعلاً. وجهت لي الدعوة لإعادة الفحص، وقبل أن ألبِّيها ذهبت إلى الطبيب السابق - الذي كنت وعدته بالمستشفى النقال وكنت وفيت بالتزامي - فقال لي إن هذا القرار قد صدر خصيصاً من أجلك! بعض ضباط البعث أصبحوا في مواقع السلطة ويعرفون تفاصيل قصتك وهم مصممون على إعادة الفحص الطبي!

ضمت قيادة الجيش السوري بعد الوحدة بعض الضباط المصريين أيضا. فذهبت إلى العقيد المصري أحمد زكي عبد الحميد وكان رئيس شعبة التنظيم والإدارة. شرحت له ما جرى معي فقال "أنت مظلوم وقد وفيت بتعهداتك، لكن القوانين ليست لصالحك. بوسعي تأجيل

استدعائك بضعة أشهر، لكنك بعد ذلك ملزم بالالتحاق. أنا وجدت لك حلاً يريحك وينهي مشكلتك في موضوع التجنيد. ستلتحق وتخدم شهر التدريب، أما خدمة الـ 11 شهراً، فستنفذها في حمص. قبل الظهر تخدم في المكتب وبعد الظهر تقوم بعملك في المصفاة". وهكذا كان. ذهبت الى حلب وفصلت بدلة ملازم أول على مقاسي ووضعت عليها النجوم وركبت سيارتي مع بطاقة توصية من العميد عبد المحسن أبو النور معاون قائد الجيش إلى قائد المدرسة الحربية لمعاملتي معاملة خاصة. وصلت إلى المدرسة ومعي أوراق التحاقي، فوجدت الهرج والمرج في أوساط الجنود، ومكبرات الصوت تذيع باستمرار أسماء متبرعين: فلان مبلغ 10 ليرات وآخر 20 ليرة. سألت أحد العسكريين عما يجري فقال لي إن الفرق في الجيش تتبرع لمساعدة الجزائر، وكل فرقة تزايد على الثانية. قلت له "كم بلغ مجموع التبرعات؟" قال: "إسمع مكبرات الصوت. المبلغ الذي وصلنا إليه هو 2000 ليرة". عندها قلت له: "سجل.. الملازم أول نادر الأتاسي تبرع بـ 2000 ليرة". وأذيع الخبر بمكبرات الصوت وهنأ الجنود بعضهم بعضاً وجاء قائد المعسكر وقال لي "سأرتب لك ترتيباً خاصاً يعفيك من النوم في الثكنة، كما أني أعفيك من رياضة الصباح". وبذلك لم أنم ليلة هناك وصرت أداوم صباحاً في الثكنة لإنهاء فترة التدريب. بعدها انتقلت إلى حمص حيث أصبحت أداوم صباحاً في المكتب وأذهب بعد الظهر لأدير أعمالي في المصفاة ودام الحال هكذا ثمانية أشهر

ونصف. بعدها تغير رئيس الخدمة، فاتخذ الضابط الجديد قراراً بعدم السماح لي بالاستمرار بدوامي هذا معللاً ذلك بأنني أذهب إلى عملي في المصفاة متسلحاً بثيابي العسكرية لاضطهاد العمال والتحكم بهم، فاستدعوني إلى دمشق.

تمكنت من مقابلة اللواء جمال فيصل، قائد الجيش. قال لي "أنت تعرف مقدار معزتنا لك، لكن قراراً صدر يقضي بنقلك من حمص إلى الجبهة لتكمل ما تبقى لك من خدمة هناك". يعني شهرين ونصف. أجبته "حاضر. سأنفذ ما هو مطلوب مني إنما بعد أن آخذ ما استحق لي من مأذونيات".

بعد أسبوعين من المأذونيات، وفيما أنا أتأهب للالتحاق بالجبهة، وصلت برقية من المشير عبد الحكيم عامر بوقف خدمة المهندس نادر الأتاسي وتسريحه من الجيش فوراً. أما الفضل في ذلك فيعود إلى الشركة التشيكية، متعهدة المصفاة. تدخل السفير التشيكي لدى عبد المحسن أبو النور مبلغاً إياه بالضرر الكبير الذي يلحق بتنفيذ أعمال المصفاة في حال ترك نادر الأتاسي لها. وهكذا أوقفت خدمة العلم حتى انتهت أعمال المصفاة. عندها ذهبت إلى قيادة الجيش وطلبت إعادتي لتنفيذ ما تبقى لي من مدة، على أن أقضيها في الجبهة. وكان الشهران من أحلى الأيام، إذ استأجرت بيتاً هناك، وأقمت لهم مشاريع عدة. وهكذا أنهيت خدمة العلم.

انطلاقة جديدة من بيروت

بمرور الوقت أخذ بريق الفرحة بالوحدة يخفت. وفي أحاديث السهرات في بيوت السوريين قلّ عدّ محاسن الوحدة وتضاعف إحصاء المساوىء. لن أدخل في تفاصيل تلك الوقائع فلقد أشبعها المؤرخون والكتاب والصحافيون عرضاً وتحليلاً من وجهات نظر مختلفة. بيد أني أذكر أنني في تلك الفترة، قررت أن أنقل جزءاً من نشاطي إلى بيروت. من دون التخلي عن مواقعي في سوريا، وفكرت أن تكون لي، بعد العراق، أعمال في العاصمة اللبنانية.

شجعني على ذلك أنني كنت أعرف بيروت جيداً. ناهيك عن سنوات الدراسة، كنت أتردد عليها مراراً، ولي فيها أصدقاء ومعارف كثر. فضلاً عن ذلك، كان الوضع الاقتصادي فيها مشجعاً للغاية، خصوصا بعدما طويت صفحة "الحرب الأهلية" عام 1958، وعادت طبيعة الإزدهار إليها في ظل الاستقرار السياسي بعد التفاهم بين جمال عبد الناصر وفؤاد شهاب رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك، وفي نعيم الحرية الإقتصادية وسهولة تحرك رؤوس الأموال وانخفاض الضرائب وبراعة المصارف في تمويل المشاريع.

وإذ أذكر المصارف، لا بد أن أذكر في الصدارة، بنك إنترا، ومؤسسه ومديره العبقري يوسف بيدس. كنت في الأثناء تعرفت عليه، وكنا

تعاونا في مشاريعي السينمائية كما سأفصل ذلك في القسم الثاني من كتابي هذا المخصص للسينما.

شجعني يوسف بيدس على الاستثمار في لبنان. قال لي: "كما نوّعتَ بلدان الاستثمار، استثمر في قطاعات مختلفة في البلد الواحد" وذكّرني بالمثل الإنكليزي القائل "لا تضع كل البيض الذي تملكه في سلّة واحدة" Don't Put All Your Eggs In One Basket.

كانت شخصية يوسف بيدس جذابة للغاية، وكان الرجل من عمالقة الإقتصاد في العالم العربي. لطالما ذكّرني بطلعت حرب. وإذا لم يكتب لي أن أتعامل مع حرب فلقد تعاملت مع بيدس كثيرا، وهو يستحق أن أفرد له فصلا في كتابي، سيكون الفصل التالي.

بالتعاون مع بنك إنترا أسست شركة "الأبنية الحديثة" في بيروت. وهي متخصصة في المباني. يملك بنك إنترا أسهما فيها، لكن أكثرية الأسهم مسجلة باسم مساهمين في البنك، وعلى رأسهم فرنان خوري، صديقي وصديق بيدس. أنا كنت مساهما بقيمة 18 % من مجموع الأسهم. وكنت المحرك الأساسي لنشاطاتها، وبمسعى مني تم تعيين أنيس شباط مديرا لها، بعدما أقنعته بالاستقالة من منصبه كأمين عام وزارة المواصلات في سوريا، وبالمجيء إلى بيروت والإقامة فيها. وكان أنيس شباط من مؤسسي نقابة المهندسين في سوريا، كما كان رئيس اللجنة الدائمة للمواصلات التابعة للجامعة العربية، وهو

مؤلف القاموس التقني بالعربية والفرنسية والإنكليزية "من رسالة الطرق إلى القاموس التقني للطرق". وخلال عمله معي كان أستاذاً في كلية الهندسة في بيروت (1963 ـ 1973). شهدت هذه الشركة "البناية الحديثة" في حيّ الصيفي في بيروت، وفي هذه البناية اتخذت مكتبا لي، منه أدير أعمالي في بيروت.

في عام 1959 وفي لقاء مع يوسف بيدس قال لي: "ليس من المعقول أن نسكن جميعنا هنا في بيوت بالإيجار ونحن نملك ما نملك من شركات وأعمال، فعلينا على الأقل انشاء بناية نسكن فيها ونقوم بتأجير الشقق الباقية". من جهتي رحبت بالفكرة التي لقيت قبولاً عند أصدقاء بيدس أيضاً والمقربين منه.

بعد اتخاذ القرار بدأنا بالتفتيش عن قطعة أرض مناسبة الى أن وجدنا مطلبنا في حي عين التينة، وكانت منطقة غير مأهولة في ذلك الحين. كانت قطعة الأرض تخص جورج معتوق أحد شركائنا، وهو كان يملك فيللا في تلك المنطقة. اتفقنا معه على الثمن، اشترينا الأرض، وبدأنا بالعمل، التصاميم ثم ورشة التنفيذ، إلى أن اكتمل البناء عام 1961، السنة التي ولدت فيها إبنتي الاخيرة ديالا في بيروت. أطلقنا على البناية إسم "بيل فو" Belle vue (المنظر الجميل) وكانت من أحدث بنايات بيروت بها كل وسائل الراحة من تدفئة مركزية إلى تكييف الهواء، فضلا عن الفخامة في التصميم وفي مواد البناء.

وانتقلنا للإقامة فيها وقد شغل يوسف بيدس طابقين كاملين، وفرنان خوري طابقاً، بالاضافة إليّ. وما زلت حتى اليوم الوحيد من أركان إنترا الذي يسكن فيها رغم حصول تطورات كثيرة في ملكية هذه البناية، ومغادرة كل من يوسف بيدس وفرنان خوري البلاد.

وبعد الانطلاقة الناجحة لشركة "الأبنية الحديثة" عهد إليها «بنك إنترا" بدراسة مشاريع البنك العقارية وإدارتها.

كان من المستحيل أن يكون حديثي عن يوسف بيدس مختصراً وعابراً لعدة أسباب: أولها، أنه كان يحظى بتقدير كبير مني، وقد عرفته عن كثب وتعاملت معه وتعلمت من خبرته أشياء وأدركت أنه من عباقرة الاقتصاد. ثانيها، أن هذا الذي أعطى البلاد الكثير لم يُنصف بل حورب وألصقت به التهم جزافا وظلما. ولقد رأيت أنه من واجبي أن أقول كلمة حق من باب الأمانة وتصحيحا للخطأ. ثالثها، أن جيل الشباب الحالي لم يعاصر تلك الأحداث، وينتظر منا نحن الذين عايشناها وكنا شهوداً أن نروي له الوقائع.

عندما جاء يوسف خليل بيدس من فلسطين التي بها ولد (عام 1912) إلى لبنان - بلد أمه - بعد نكبة 1948، لم يجلب معه مالاً بل كانت رأسه مليئة بالأفكار. في البداية أسس شركة صغيرة تتعاطى الصيرفة، ما لبثت أن نمت، فذهب طموحه إلى أبعد. في عام 1951 حصل على رخصة لافتتاح مصرف «انترناشيونال" هو الذي سيغدو «بنك إنترا". وفي نحو عشر سنوات سيصبح المصرف الأول في لبنان من حيث حجم الودائع وضخامة المشاريع.

كان يوسف بيدس صاحب حدس صحيح فيما يخص الشؤون المالية والاستثمار. كان من أوائل الذين استشعروا أهمية بلدان الخليج

العربية التي ستنفجر فيها الثروات مع تدفق النفط، وكان أن استقطب الكثير من رؤوس الأموال الخليجية. كما كان «إنترا» إحدى الواحات التي لجأت إليها رؤوس الأموال السورية والمصرية بعد قرارات التأميم عام 1961. وكان بيدس يؤمن بأنه على كل مصرف أن ينجز الأعمال التقليدية، لكن على الراغب في التطور أن ينظر إلى بعيد، إلى الاستثمارات المجدية وإن كانت طويلة الأجل.

سأكتفي بأربعة نماذج من استثمارات إنترا في لبنان، ثلاثة منها ما زالت إلى يومنا هذا من أنجح المشاريع، والرابع تعثر لأسباب خاصة. كان بنك إنترا يملك 65 % من أسهم «شركة طيران الشرق الأوسط. الخطوط الجوية اللبنانية». وكان المساهم الأكبر في «كازينو لبنان» وفي «فندق فينيسيا». المشروع الرابع هو «استوديو بعلبك». كان بيدس يحلم بأن يجذب كبرى شركات إنتاج الأفلام السينمائية في هوليوود وأوروبا لتصوير الأفلام في لبنان حيث الشمس تشرق في معظم شهور السنة والمناظر الطبيعية الخلابة، ولهذا أسس «استوديو بعلبك». كان مشروعاً ناجحاً، لكن سقوط البنك ثم نشوب الحرب في لبنان عام 1975 ثم ظهور وسائل الانتاج السينمائية الحديثة أدت إلى ما آل إليه استوديو بعلبك الآن.

ولم يكتف بيدس بالسوق اللبنانية. فتح إنترا فروعاً في الأردن (وكان يضم الضفة الغربية من فلسطين أيضاً) في عمان والقدس والخليل ورام الله ونابلس. واستثمر في فرنسا وانكلترا والبرازيل والولايات المتحدة

الأميركية وسواها. وأتذكر الآن فرع انترا في العاصمة الفرنسية: كان بيدس طلب مني أن أزوره في باريس. وفي المطار الفرنسي فوجئت بوجود لوحات إعلانية تقول „أيها الضيوف العرب، لا تنسوا زيارة بنك إنترا في شارع جورج الخامس. وفي الإعلان العنوان وأرقام التلفون”. توجهت إلى البنك وكان العلم اللبناني يرفرف فوق المدخل في أحد أفخم شوارع باريس. عند الباب استقبلني حاجبان يلبسان الزي الفولوكلوري اللبناني، وفي الداخل مضيفات بالزي اللبناني أيضاً وشخص يحمل ركوة القهوة العربية ويقدم قهوة الترحيب. وجاءني يوسف بيدس مستقبلاً ببشاشة وأطلعني على بعض تفاصيل البنك ودعاني إلى العشاء مع نخبة من رجال الأعمال الفرنسيين، وأدركت أهمية البنك وبيدس أيضاً، فانشرح صدري. وعدت إلى بيروت وقد زاد اقتناعي بأهمية الرجل وما أسداه إلى لبنان في بيروت والعالم العربي، بل وعلى الصعيد الدولي أيضاً.

ثم راحت سنوات الإزدهار وجاء زمن الإنكسار، وأطل خريف عام 1966 كئيبا. وبرغم علمي بأن كثيرين لا يحبون „نظرية المؤامرة”، وأنا شخصياً لا أؤيد إطلاقها بسند وبلا سند، إلا أنني في موضوع „بنك إنترا” مقتنع بوجود مؤامرة لتحطيم المصرف، وأستدل على ذلك من الطريقة التي هوجم بها ومن تقاعس الحكومة اللبنانية والبنك المركزي عن مد يد المساعدة بشكل أثار ريبة الكثيرين.

بشكل منظم، انتشرت الشائعات بأن بنك إنترا بنك فلسطيني، يعمل

لحساب منظمة التحرير الفلسطينية ويتصرف بأموال المودعين! وتم التذكير بأن رئيس مجلس الإدارة يوسف بيدس واثنين من معاونيه: بدر الفاهوم واميل مسلم فلسطينيون. وأغفل أنهم اكتسبوا الجنسية اللبنانية، كما أغفل ذكر أسماء اللبنانيين في مجلس الإدارة ومنهم نجيب صالحة ورفيق نجا. إضافة إلى أن معظم المساهمين لبنانيون وسوريون مقيمون، وأنا منهم وكنت أملك 5 % من الأسهم. ولم يكن مصرفاً فلسطينياً ولا علاقة لمنظمة التحرير به.

وبعدما تسربت سموم هذه الشائعة في المجتمع، انطلق الهجوم بالإشاعة الثانية وهي الأشد فتكا: „بنك إنترا أفلس.. سارعوا بسحب ودائعكم"! ومن الطبيعي أن أي مصرف لا يحبس الودائع في خزائنه بل يقوم بتوظيفها، وإذا تهافت المودعون على أكبر مصرف في العالم يطلبون سحب أموالهم على الفور، لعجز عن تلبية الطلب. في هذه المرحلة، تباطأت الحكومة (رئيسها عبد الله اليافي وهو وزير المالية أيضاً) والبنك المركزي في مدّ بنك إنترا بالسيولة اللازمة لمواجهة الوضع الغريب.

وقيل إن عبد الله اليافي كان له ثأر خاص ضد يوسف بيدس، إذ حضر يوما لمقابلته فطُلب منه الانتظار ريثما ينتهي بيدس من اجتماع ، فغضبَ لأنه كان معتاداً أن ينتظره الناس! لن أدخل في تفاصيل هذه الرواية ومدى صحتها، لكني سأستذكر موقف الحكومة وكيف

عارضها كثير من النواب في المجلس النيابي. أذكر أن نجيب صالحة ذكّر الرئيس اليافي بأنهم قدروا «المِدل إيست" بنصف قيمتها ولم يمدوا بنك إنترا سوى بـ 15 مليون ليرة، وكان البنك بحاجة إلى 150 مليون ليرة لمواجهة الهجمة الشرسة! وكما الميدل إيست كذلك فندق فينيسيا وكازينو لبنان وكل موجودات البنك قدرت بأقل من قيمتها. وبحسب وكالة الصحافة الفرنسية كان لإنترا في فرنسا مصالح تقدر بـ 200 مليون فرنك: كان يملك أجمل قطعة أرض في الشانزيليزيه في باريس مساحتها 6000 متر مربع قدّرت يومها بـ 70 مليون فرنك. ويملك 80 % من اسهم شركة سيوتا البحرية (55 مليون فرنك) إضافة إلى مساهمات في مشاريع فرنسية صغيرة قيمتها الإجمالية 50 مليون فرنك.

كل الموجودات في لبنان والعالم إرتفعت قيمتها أضعافا وأضعافا في وقت لاحق. وبعد سقوط إنترا تعرض البنك البريطاني في بيروت لحملة شائعات مشابهة، فما كان من الحكومة البريطانية إلا أن أرسلت مبالغ طائلة من الجنيهات الاسترلينية وأمنت للمصرف السيولة اللازمة لمواجهة الهجمة، فأنقذت البنك. وهذا ما لم تفعله الحكومة اللبنانية. يومها اتهم كمال جنبلاط جهات أجنبية بأنها كانت وراء الأزمة المصرفية في لبنان، كما اتهم بعض المسؤولين في البنك المركزي اللبناني بالإهمال. أما الشيخ نجيب علم الدين وكان يومها رئيس «الميدل إيست" فكتب لاحقا في سيرته الذاتية

يقول:" أنا مقتنع تماما بأن قضية إنترا كانت بداية تفسخ الاقتصاد اللبناني".

توقف بنك إنترا عن الدفع وأعلن إفلاس البنك. وكان يوسف بيدس خارج لبنان. لاحقته الحكومة اللبنانية وطلبت من السلطات السويسرية أن تعتقله وتسلمه، لكنها رفضت لعدم كفاية الأدلة ضد يوسف بيدس، الذي عاش حزيناً في المنفى يتحسر على انهيار الإمبراطورية المالية التي شيدها دون أن يتمكن من إنقاذها. وهاجمه داء السرطان فتوفي بالمستشفى في لوسيرن في 28 تشرين الثاني 1968.

كنت أخذت على نفسي العهد بأن أدافع عن هذا الرجل لأنه في يقيني من أشرف الرجال، وقد خدم المجتمع أكبر الخدمات. وها أنا أفي بالعهد.

في 6 آذار 1958 تشكلت الحكومة الأولى في عهد الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر، وهو رئيس الجمهورية أيضاً، وله نائبان من مصر: عبد اللطيف البغدادي وعبد الحكيم عامر، ونائبان من سوريا: صبري العسلي وأكرم الحوراني. بعض الوزارات كان يشغلها وزير واحد للقطرين، وزارة الخارجية مثلاً، أما بالنسبة إلى بقية الوزارات فكان ثمة وزير للإقليم الشمالي وآخر للإقليم الجنوبي. ثم تغيرت التسميات مع تغير الحكومات التي ظلت جميعها برئاسة عبد الناصر. ومنها أن مجلس الوزراء له مجلسان تنفيذيان، في كل أقليم مجلس يضم وزراء، ويترأس المجلس التنفيذي نائب رئيس الجمهورية.

في مطلع عام 1961 التأم المجلس التنفيذي في الإقليم الشمالي برئاسة جمال عبد الناصر لبحث مشروع قرار يقضي بتأميم البنوك والشركات في الجمهورية العربية المتحدة. كان أول المعترضين نور الدين كحالة، وكان يشغل آنذاك منصب نائب رئيس الجمهورية، لكنه ترك اتخاذ القرار لعبد الناصر. وشرح وزير الاقتصاد حسني الصواف أسباب معارضته للتأميم، منها أن سوريا بلد تجاري سيتأثر سلباً كما أن البنوك السورية تضم ودائع لرجال أعمال عرب ولسوف تهرب

رؤوس الأموال هذه إلى خارج البلاد. كما عارض عبد الوهاب حومد وكان وزير الخزانة قرار التأميم. لكن القرار صدر!

كنت جالسا مع أصدقاء لتناول طعام العشاء في "نادي الشرق" بحمص (وكنت المالك له أيضاً). وكان هو المكان الذي ألتقي فيه بالأصدقاء والشخصيات الحمصية بشكل يومي تقريباً حين أتواجد في حمص. وفي معظم الأحيان تمتد الجلسات فنستدعي العائلات ونتناول طعام العشاء ونمضي السهرة في نادي الشرق. وفي تلك الليلة الربيعية تابعنا مذيع الأخبار في التلفزيون وهو يقرأ النشرة فسمعنا قرارات التأميم. من بين الأسماء الأولى ورد "بنك العالم العربي" وكنت مساهماً به. وواصل المذيع تعداد أسماء الشركات المؤممة فإذا بعدد كبير منها شركات كنت مساهماً فيها ورئيساً لمجلس إدارتها أو عضواً في هذه المجالس. ولم يكن في حمص من يساويني في امتلاك هذا العدد الكبير من الأسهم في الشركات المختلفة.

وكانت شركة "معمل الإسمنت في حمص" إحدى الشركات التي أملك فيها أغلبية الأسهم، لكني ما رغبت في ترؤس مجلس إدارتها لأنها كانت ستشغلني عن اهتماماتي الأخرى. إنتخبنا لها نزار الحسيني رئيساً لمجلس الإدارة واحتفظت بمنصب نائب الرئيس، وإن كان الحل والربط بيدي. كان جميع المساهمين من حمص ما عدا حنين صحناوي من دمشق. (كان حنين نائباً عن دمشق في البرلمان السوري وأخوه أنطون صحناوي نائبا عن بيروت في وقت واحد).

كان رأسمال الشركة 7 ملايين و500 ألف ليرة سورية، لكن إقبال الناس على الاكتتاب كان كبيراً فارتفع إلى 47 مليون ليرة! وارتفعت أسعار الأسهم إلى الضعف قبل أن نبدأ في المشروع، بل قبل أن نشتري الأرض! أيامها سرت نكتة في حمص تقول إن كل خطيبة كانت تطلب من خطيبها أن يهديها أسهماً في شركتنا بدلاً من الذهب المتعارف عليه في مرحلة الخطوبة! باشرنا العمل في المعمل، وقبل أن يقبض أي مساهم قرشاً واحداً، كان قرار التأميم قد صدر!

طبعا كنت من أشد المتضررين من قرارات التأميم. لكن في القائمة المعلنة تلك الليلة لم نسمع اسم شركتين: شركة الأدوية وكنت قد أسستها في حمص لشقيقي خلوصي، وشركة صيدلة. لم تدم الفرحة سوى ليلة، إذ في اليوم التالي صدر مرسوم تأميمهما.

كانت الضربة كبيرة، وجاءني مدير نادي الشرق بعدما سجل أسماء الشركات التي تم تأميمها والتي لي فيها أسهم متسائلاً: ماذا تريدنا أن نفعل إزاء هذه القرارات؟ أتريد منا إقفال النادي؟ فأجبته: "أترك كل شيء على حاله، وغداً سوف نخطط برنامجنا في ضوء ما سيكون".

مكثنا قرابة الأسبوع في إحصاء الأضرار وكانت كبيرة جداً. ثم خططت بهدوء لمستقبل الأشغال. قررت أن أستعيض عن ذلك بنشاطات أخرى غير مشمولة بقرارات التأميم، فركزت على التعهدات وعلى النشاط السينمائي، وقررت الاستثمار قدر المستطاع في هذين المجالين.

ومن حسن الحظ أنني كنت بدأت الأعمال في بيروت. قررت التوجه إليها ومن مكتبي فيها أدير أعمالي في لبنان، وسوريا والعراق. وكنت في سوريا أسست شركة "نادر وخلدون الأتاسي للتعهدات" وأوكلت إدارتها إلى أخي خلدون.

تحملت خسائر التأميم بفضل نشاطي الاقتصادي في لبنان والعراق. ثم أن عمر التأميم كان قصيراً، إذ ما إن حل خريف العام ذاته 1961، وتحديداً يوم 21 أيلول حتى وقع الانفصال وجاء عهد جديد ألغى العديد من القوانين التي صدرت في عهد الجمهورية العربية المتحدة. وكان أول رئيس للجمهورية في عهد الانفصال هو ناظم القدسي. وهو سياسي مخضرم من مؤسسي "حزب الشعب"، وصديق شخصي لي. في عهد الجمهورية العربية المتحدة ابتعد عن السياسة، وبناء على اقتراحي الشخصي تولى رئاسة مجلس إدارة "بنك العالم العربي" وظل في منصبه هذا إلى أن انتقل منه إلى رئاسة الجمهورية. (وظل رئيسا للجمهورية إلى تاريخ استلام حزب البعث للسلطة في 8 آذار 1963).

دارت عجلة المشاريع والإنتاج في سوريا من جديد، وفي لبنان كانت أجمل سنوات الازدهار، وكانت مشاريعنا في العراق مستمرة برغم تقلب العهود وزيادة طغيان القطاع العام على القطاع الخاص.

بعد سقوط الملكية في العراق في 14 تموز 1958، تولّى عبد الكريم قاسم رئاسة الجمهورية إلى أن أطاح به عبد السلام عارف في عام 1963 والأخير توفي في حادث تحطم طائرته في 13 نيسان 1966

فخلفه أخوه عبد الرحمن عارف. ورغم تغير العهود لم تتأثر شركتنا سلباً ذلك أنني نأيت بنفسي عن الانغماس في متاهات السياسة. وكانت الحكومات العراقية تتعاقب ولا تصمد طويلاً فلقد استقال عبد الرحمن البزاز من رئاسة الحكومة في آب 1966 وخلفه ناجي طالب والشيء الوحيد الذي ظل ثابتاً، بل ومتطوراً، هو المشاريع الإنمائية. فالعراق بلد نفطي غني وموارده كبيرة ومشاريعه كبيرة وكثيرة هي الأخرى.

واستعداداً لما كان يجري في العراق من مناقصات تتطلب مبالغ ضخمة للاشتراك فيها، شكلنا كتلة من "الشركة الشرقية للهندسة" العراقية مع "شركة الأبنية الحديثة" اللبنانية بكفالة من بنك إنترا وبضمانات بنك Credit Lyonnais الفرنسي وذلك للدخول في المناقصات وخاصة مناقصة معمل الورق، الذي قُبلت فيه شركتنا مع بعض كبريات الشركات العالمية وبشكل خاص شركة إيطالية ضخمة، فيما رُفضت بعض الشركات المتقدمة للمناقصة ومنها شركة "كات" اللبنانية برغم جذورها العميقة في عالم التعهدات في العراق.

جرت المناقصة، وعند فض العروض كان سعرنا أنسب الأسعار ورسا الالتزام علينا. بعد ذلك بدأنا الاستعداد للتنفيذ واتفقنا مع شركات عالمية لزرع الأوتاد في الفرات وإذ بالمفاجأة الكبرى تداهمنا، فقد أعلن إفلاس بنك إنترا. كان النبأ كارثة بالنسبة إلينا، لكننا تداركنا

الأمر بإيجاد كفالات بديلة تضمن لنا الاستمرار في تنفيذ معمل الورق. إلا أن مدير المشروع في بغداد السيد الغضنفري أصرّ على وجوب حضوري إلى بغداد باعتباري المسؤول.

سافرت إلى بغداد بالطائرة، وكان الوضع السياسي غير مستقر. استغربت لعدم وجود أحد في استقبالي في المطار إلا محامي الشركة، وكان مرتبكاً وخائفاً. ذهبنا فوراً إلى منزله وهناك أخبرني بأن الغضنفري مصرّ على انسحابنا من المشروع وترك الحكومة العراقية تختار متعهداً آخر. قلت له "أبلغهم حالياً استعدادي لتلبية كل طلباتهم ريثما أرتب كل المستلزمات القانونية". وفي اليوم الثاني حاولت إقناع الغضنفري بأني سأؤمن له الكفالات اللازمة، لكنه كان مصرّاً على تنازلي، فتظاهرت بالقبول وذهبت مع المحامي وهيأت الأوراق الرسمية التي تثبت سلامة وضعي وقانونيته وذهبت الى المطار طالباً من المحامي تسليم الأوراق الى الغضنفري بعد مغادرتي. غضب الغضنفري وأصدر قراراً بمنعي من السفر، إلا إنني كنت قد أصبحت في بيروت، ومنها أرسلت الكفالات المصرفية المطلوبة إلى بغداد. أصبح السيد الغضنفري أمام الأمر الواقع ولم يعد بوسعه الاعتراض.

بيد أنني، بعد الذي حصل، كنت أرغب في مشاركة الشركة الايطالية التي كانت تلينا في أسعار المناقصة. وتلاقت رغباتنا في المشاركة.

وقبل الغضنفري ذلك على مضض. بعد ذلك اتفقنا مع الشركة الإيطالية على التنازل عن المشروع لقاء مبلغ 200000 دينار عراقي تم تحويله لحساب "شركة الأبنية الحديثة" في بيروت.

شركة "الأبنية الحديثة"

كما ذكرت سابقاً كانت شركة "الأبنية الحديثة" من الشركات التي كان لبنك إنترا حصة محترمة فيها، بشكل مباشر أو عبر أكثرية الأسهم المسجلة بأسماء مساهمين في البنك وعلى رأسهم فرنان خوري الذي كان يملك 51 % فيما كنتُ أملك 18% . وكانت شركة "الأبنية الحديثة" تملك بناية "بيل فو" و"البناية الحديثة".

وبعد سقوط بنك إنترا القسري أسست الحكومة اللبنانية "شركة إنترا" بقصد تسوية أوضاع البنك. وخططت شركة إنترا لوضع يدها على شركة "الأبنية الحديثة" كما وضعت يدها على بقية موجودات بنك إنترا في كازينو لبنان وفي فندق فينيسيا وشركة طيران الشرق الأوسط وسواها. ودعت إلى انعقاد جمعية عمومية. قبل الاجتماع ألزموا فرنان خوري بأن يوقع لهم تنازلاً عن حصته وبأن يفوضهم بالتصويت باسمه، مقابل إعفائه من الملاحقة الجزائية نتيجه كونه عضواً في الشركة، بل كبير المساهمين. وهكذا كان، وعقدوا اجتماعاً لمجلس إدارة شركة الأبنية الحديثة طلبوا فيه تسوية وضعها المالي، إذ كانت مدينة لبنك إنترا بمبلغ 8 ملايين ليرة، كما طلبوا تسديد هذا المبلغ قبل انعقاد الجمعية العمومية. وكان ذلك من الأسباب التعجيزية التي ابتكروها لوضع يدهم على شركة الأبنية الحديثة.

وتسنى لهم ما أرادوا، إذ استغلوا مناسبة سفري خارج لبنان ودعوا لانعقاد الجمعية العمومية وفي الاجتماع قرروا بيع شركة "الأبنية الحديثة" وكل ما تملك بما في ذلك بناية بيل فو والبناية الحديثة في الصيفي وكذلك الأراضي الكائنة في بلدة رومية إلى "شركة إنترا" مقابل الدين المترتب على "الأبنية الحديثة" تجاه بنك إنترا.

لما عدت من السفر إستدعيت المحامين وأقمت دعاوى أمام القضاء. كان يوسف بيدس في الخارج (ثم مات) وكان فرنان خوري ترك لبنان إلى النمسا، والوحيد الذي بقي معي هو بدر الفاهوم. وظلت الدعاوى تنظر في المحاكم إلى أن بدأت الحرب في لبنان، واختفت الملفات خلال تلك الفوضى، ودخلت القضية في متاهات الغموض. ومع الزمن أسقطنا الدعاوى التي أقمناها وأسدل الستار على مشاريع حت وارتفعت وأريد لها أن تهبط فهوت!..

مرت سنوات الحرب ثقيلة على بيروت وعموم لبنان. أسموها في البداية "حرب السنتين" لأنها توقفت، أو تمهلت بعد سنتين. فظن الناس . وأنا منهم . أنها انتهت. لكنها ما لبثت أن اشتعلت مجددا حاملة معها الدمار والخطر. وبطبيعة الحال، تضررت المصالح الاقتصادية واضطر رجال الأعمال إلى نقل مكاتبهم إلى الخارج ليتمكنوا من مواصلة العمل. أنا انتقلت إلى دمشق حيث مكتبي موجود وشركاتي موجودة، ومنها صرت أتابع المشاريع التي ننفذها في سوريا.

وفي 1980 قررت أن أشتري بيتاً في باريس فوجدت بيتا يناسب ذوقي. فاشتريته وأقمت فيه مع عائلتي. كما اتخذت لي مكتباً في العاصمة الفرنسية أباشر منه أشغالي، وكانت سينمائية (وسيرد تفصيلها لاحقاً) وهندسية أيضاً. إذ أقمت العلاقات مع كبريات شركات المقاولات الفرنسية، ورسخت ما كان منها قائماً، كما من باريس وطدت علاقاتي مع شركات ألمانية ونمسوية وسويدية وأوروبية مختلفة. وتعاونّا معاً في تنفيذ العديد من المشاريع في سوريا (في ختام الكتاب ملحق يفصل معظم هذه المشاريع).

كان الانتقال من باريس إلى معظم العواصم الأوروبية سهلاً. وكانت

الحياة فيها، كما كانت دائماً، توفر المتعة الجمالية والثقافية وترضي أمزجة أصحاب الذوق المرهف. لكن بالإضافة إلى ذلك، كانت تضم آنذاك "بيروت صغيرة"! كان فيها المصارف اللبنانية، المطاعم، الجرائد والمجلات التي تصدر منها، المتاجر، وسواها مما يجعل المرء يشعر بألفة. وكان اللبنانيون منتشرون بكثرة مع السوريين والعرب، خصوصاً في نواحي الشانزيليزيه والأوبرا والحي اللاتيني.

ثم اشترينا بيتا آخر في مدينة كان الجميلة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، صرنا نمضي فيه فصل الصيف. وأنا كنت معتادا على زيارة هذه المدينة منذ سنوات، مواظباً على حضور مهرجانها السينمائي كل عام.

لم يتوقف نشاطي في باريس، لكن الفرصة أتيحت لي أن أساهم في أعمال في الولايات المتحدة الأمريكية أيضا، منها الأفلام السينمائية وغيرها. وكان ابني حماد هو الذي قادني إلى هذا المجال الجديد. إذ أنه بعد أن درس سنة في لندن غادرها إلى لوس انجلوس كي يكمل دراسته في كلية الهندسة هناك. وحين صار أوان تخرجه سافرت إلى لوس أنجلوس لحضور حفل التخرج. وبهذه المناسبة التقيت أشخاصاً من الجالية السورية وبينهم الكثير من رجال الأعمال، وخاصة في مجال السينما.

كان حماد قد قرر العمل في أمريكا بعد تخرجه، لأن الأوضاع في البلاد العربية لم تكن مستقرة. وأثناء الحفلات التي كانت تقام على شرفي، سألت بعض أفراد الجالية عن كيفية قضاء أوقاتهم وسهراتهم وأين؟ فكانت الاجابة بأننا لسنا جالية بالمعنى الصحيح للكلمة، بل إننا أصدقاء نجتمع دورياً في منزل أحدنا نتسلى بطاولة الزهر والنساء يقضين الوقت بلعبة البرجيس وبعدها يذهب كل منا إلى بيته. فكرت قليلاً ورأيت أن هذه الجماعة تضم رجال أعمال كبار ونشاطهم يغطي الكثير من المجالات، وبشكل خاص المخرج العالمي مصطفى العقاد، وقد بنوا لأنفسهم أسماء لامعة، وليس لديهم مكان

يجمعهم في أي من المناسبات. لذلك قررت إنشاء مطعم في لوس أنجلوس يكون ملتقى لهذه الجالية المهمة.

وفي ذلك الوقت كان المطرب اللبناني محمد جمال قد هاجر إلى أمريكا وأقام في لوس أنجلوس. التقيت به وتحدثنا وسلمته الإشراف على المطعم الجديد، وقد اخترت له اسم "بيبلوس". وافتتح المطعم سنة 1983. ولم يمضِ وقت طويل حتى ذاع صيته بين جميع المغتربين أمثال عائلة مصطفى العقاد وعائلة الطباع وغيرهم من المقيمين والوافدين العرب. وتباعاً استقدم المطعم المطربات والمطربين المشهورين في العالم العربي، وأصبحت السهرات فيه ممتعة: طعام عربي طيب المذاق وطرب عربي أصيل. وانتشرت سمعة المطعم الممتازة في البلاد العربية، فأصبح كل عربي مقيم في لوس أنجلوس او زائر بقصد السياحة، يضع في أولوياته زيارة هذا المطعم. كما كنت وعائلتي نقضي سنوياً عيدي الميلاد ورأس السنة هناك حين نكون في أمريكا، ونمضي الأيام والليالي الجميلة مع الأصدقاء والأعزاء.

وفي سنة 1991 كنت في لوس أنجلوس مقيما مع العائلة في فندق. وفي إحدى الليالي، وفيما أنا في "السويت" مع زوجتي، فوجئنا باهتزازات عنيفة تجعل كل شي حولنا يهتز ويتساقط، فحاولت الخروج من الغرفة، لكن زوجتي اقترحت البقاء بانتظار ما سيصدر من تعليمات. وبعد برهة وجيزة طلب منا الخروج من الفندق من دون

استعمال المصاعد، فلبسنا معاطفنا ونزلنا على الدرج من الطابق الثاني عشر إلى خارج الفندق. كان الجو بارد في هذا الوقت من السنة ومكثنا في الخارج حوالي نصف ساعة إلى أن سمحوا لنا بالعودة إلى الفندق الذي كان بناؤه مجهزاً ضد الزلازل. عدنا، فجلست في الصالون رافضاً الصعود إلى الغرفة، وقلت لهم لن أتحرك من هنا إلا إلى الطائرة! لأنني قررت ترك أمريكا في أسرع وقت ممكن. وكان همي اولاً تفقد بقية أفراد العائلة وقد جال عليهم مدير المطعم وعاد يبلغني بسلامة الجميع قائلاً بأنهم قادمون للاطمئنان علينا. وبعد هول الاهتزازات الارتدادية أصبح همّي وجود أماكن للسفر بالطائرة، إذ كان حجز التذاكر صعباً جداً في موسم الأعياد. إلا أن سمعة مطعم بيبلوس وعلاقته الجيدة بمكاتب الطيران كونه زبوناً دائماً يشتري العديد من البطاقات سنوياً، سهلتا لنا الأمر "وخلقوا لنا التذاكر من تحت الأرض".

أصيب مطعم بيبلوس إصابات بالغة جرّاء الهزة وتحطمت جميع محتوياته فسارعنا إلى تصليحها. من بعد فكرت جدياً في التنازل بعد أن قررت عدم العودة إلى أمريكا. و بعد بضع سنوات عرضته للبيع، وتركت لمديره السيد مازن أن يكون مالكاً لربع المطعم حين بيعه من المستثمرين الجدد. وما زال الزبائن الذين كانوا - وما زالوا - يرتادون مطعم بيبلوس يتذكرون الأيام الحلوة والليالي السعيدة التي كانوا يقضونها فيه.

حكايتي مع بارنوش

في عام 1990، وأثناء تنقلي بين بيروت وباريس التقيت في المطار بصديق لي اسمه جان طربيه وكنت أعرفه من أيام الدراسة، إذ كان يدرس المحاماة في الجامعة اليسوعية في بيروت وكانت كلية الحقوق في المبنى ذاته مع كلية الهندسة. أقدم علي معانقاً وقال "كنت أفتش عليك لأنني حصلت على رخصة لإنشاء بنك في باريس وأرغب في مساهمتك بأي مبلغ تريده، كما أنك ستتولى رئاسة مجلس إدارته" فوافقت على المساهمة إلا أنني اعتذرت عن قبولي رئاسة مجلس الادارة كوني لا أحمل الجنسية الفرنسية، وقبلت بأن أكون شريكاً مساهماً ونائباً للرئيس.

تم تأسيس البنك بالفعل باسم "بنك لبنان العربي" واتخذت فيه مركزاً لي أتابع منه أعمال المصرف وأشرف على مشاريعي الأخرى. كان جان طربيه في هذه الاثناء يقوي اتصالاته مع أشخاص آخرين من رجال الأعمال وأصحاب الشركات. وذات يوم دعاني للذهاب معه في نزهة إلى مدينة دييب Dieppe في النورماندي وهي تقع على ساحل المانش، على أن نمضي فيها يوماً ثم نعود براً بالطريق ذاته. قضينا الليلة هناك وعدنا بسيارتي، وكنا ما زلنا في منطقة النورماندي على مقربة من دييب، عندما مررنا ببلدة صغيرة تدعى

"فورج لي زو" Forges Les Eaux توقفنا فيها وقال لي جان طربيه „يوجد هنا كازينو معروض للبيع" وعرّفني على شخص يدعى بيلابانيان كان يعمل في الكازينو وأخذنا منه كامل المعلومات عن الكازينو وصاحبه وكيفيه العمل معه وكذلك المبلغ المطلوب كثمن له.

كان المجمع يضم 48 هكتاراً من الأرض اي ما يوازي 480 الف متر مربع وسبع فيلات ومبنى يضم صالة سينما، وملعبين للتنس وبحيرة وفندقين هما: كونتيننتال (50 غرفة) ودي بارك (60 غرفة) وكازينو يعتبر من أقرب كازينوهات الروليت إلى العاصمة الفرنسية باريس، ويقال إن إحدى الفيلات كانت مقرا للملكة ماري أنطوانيت التي أعدمت خلال الثورة الفرنسية، وكان يملك المشروع جان بوشيه الذي ساهم في إنشاء كازينو لبنان في بداية الستينات.

عدنا إلى باريس وبدأ العمل على تأسيس شركة تتولى شراء الكازينو فاتصل جان طربيه بالعديد من رجال الأعمال اللبنانيين وتأسست شركة قابضة في لبنان وتمت عملية الشراء باسمها وتشكل مجلس إدارتها من السادة: أحمد حبوس ونادر الأتاسي ونبيل طبيعات ومنير عشي وأندريه طربيه وجورج دانيال وبطرس ضاهر، وتفرعت عنها شركة فرنسية أخرى لإدارة المجمع أطلق عليها اسم (سوسيته فورج تيرمال) Société Forges Thermal تألف مجلس إدارتها من:

أحمد حبوس رئيساً وطوني طربيه عضواً منتدباً وكل من حماد نادر الأتاسي والسيد بيلابنيان (مدير عام الكازينو) أعضاء.

تمت الصفقة بمبلغ 19 مليون فرنك فرنسي وقد كنا ننوي بيعه بـ24 مليون فرنك محققين بذلك ربحاً قدره خمسة ملايين فرنك. لكن حصلت تطورات كثيرة في الكازينو حيث فشلنا في الحصول على رخصة الاستثمار لعدم وجود شركاء فرنسيين كما حصلت تطورات كثيرة من الصعب تعدادها كلها إلا انني سأقفز إلى نهايتها حيث وضع الكازينو تحت الحراسة القانونية قبل التفليسة. وهنا تقدم شخص اسمه إيزيدور بارتوش Partouche وعرض شراء الكازينو، فقام الشركاء ببيع حصصهم برغم الاتفاق الذي كان قائماً بيننا بعدم البيع. أما أنا، فاحتفظت بحصتي وأصبح الكازينو مملوكاً بنسبة 60% لبارتوش و40% لي أنا.

إستلمت مجموعة بارتوش الإدارة وهي تملك خبرة واسعة في إدارة الكازينوهات، حتى أنني سألت إيزيدور بارتوش في أحد الأيام: « هل لكم علاقة بالمافيا؟" فأجابني: ,,نحن أصحاب خبرة في هذا المجال وشركتنا تتألف من أفراد العائلة وكلنا متضامنون ولا لزوم لنا لإدخال المافيا أو غيرها في شؤوننا". وخلال عشر سنوات ازدهر الكازينو ازدهاراً كبيراً حتى بات ثالث أو رابع كازينو في فرنسا. واستمر تفاهمنا مع بارتوش الذي يملك 30 كازينو في العالم، منها

25 في فرنسا، وهو من أقطاب هذه المهنة. وما زال العمل مستمراً في الشركة التي أسسناها مع بارتوش حتى تاريخه، وابني حماد عضو مجلس الإدارة فيها.

وأعود إلى "بنك لبنان العربي" الذي اضطربت الأعمال فيه وأعلن إفلاسه. من حسن الحظ أنني كنت قد استقلت من عضوية مجلس الإدارة قبل ذلك بسنتين. وتعرض ابن جان طربيه للسجن وتم التحقيق معي وظهرت سلامة موقفي إذ لم أكن مديناً للبنك. وأخيراً تمكن جان طربيه من إنقاذ ولده من السجن وأعيد للمساهمين ربع قيمة أسهمهم.

شركات المناطق الحرة

كما ذكرت سابقاً، بدأت من باريس مزاولة نشاط التعهدات بالتعاون مع الشركات الأجنبية. وكان مردود هذا التعاون إيجابياً، لأنه وسّع دائرة الالتزامات بحيث أصبحنا نشارك في مناقصات لمشاريع ضخمة ما كنا لنقوم بها وحدنا. ولهذه المشاريع الجديدة أسست شركات جديدة، أقدمت على تنفيذ تعهدات كبيرة في سوريا.

ومن أجل تسهيل أعمالنا مع الشركات الأجنبية التي قمنا بالتعاون معها في تنفيذ المشاريع، فقد أسسنا شركة „ترانزكس أورينت" في قبرص بنفس الطريقة التي كنا أسسنا فيها „أورينكو" في العراق. واستطعنا أن نحصل على كثير من المشاريع، كالتي حصلنا عليها مع شركة „تيكنيب" الفرنسية، كما استطعنا تنفيذ عدة مشاريع لتركيب المعدات وتقديم اليد العاملة إلى جانب الأعمال المدنية. كان ذلك بالنسبة إلينا عصراً ذهبياً. وقد استأجرت الشركة الفرنسية بيتي في حمص بعد أصبح كبيراً عليّ ولم يبق من ضرورة له خاصة بعد زواج حماد.

أما علاقتنا مع شركة Creusot Loire فسمح لنا بالاتصال مع شركات أجنبية، خصوصاً اليابانية، فاتجهنا صوب المشاريع الكبرى في سورية كشركات الكهرباء. ونجحنا في الحصول

على مشروعين بالتعاون معهما. وقمنا بتوسيع شركتنا في هذه الأثناء فعرفت اسمنا لدى الشركات سواء في اليونان أو ألمانيا كشركة للتعهدات مختصة أيضاً بأعمال التركيب أي construction واشترينا آليات ضخمة للحفر والترحيل ورافعات كانت ضرورية لتنفيذ مثل هذه المشاريع.

ثم حصل توتر في العلاقات الاقتصادية بين فرنسا وسورية بسبب حجز الحكومة السورية لتأمينات المشاريع المدفوعة من قبل الشركات الفرنسية، كما طلبت الحكومة أموراً تعجيزية لإعادة النظر في المشاريع - التي لم تكن هذه الشركات مسؤولة عنها - فكان أن أعلنت هذه الشركات عدم رغبتها في الاستمرار بالتعاون الاقتصادي مع سورية، وتوقفت عن المشاركة في المناقصات مما أدى إلى انهيار الاتفاق المعقود بيننا وبين الفرنسيين، فرأينا أن نؤسس شركتنا الخاصة مستقلين بذلك عن الشركات الاجنبية مع المحافظة على حسن العلاقة معهم. وعلى هذا تم تنظيم أمورنا معتمدين على أنفسنا فقط.

وبدأت تدريجياً في التخفيف من تدخلي الفعلي في إدارة الاعمال مكتفياً فقط بالتوجيه وحضور بعض الاجتماعات الدورية التي كانت تعقد لوضع البرامج. وتسلم زمام الأمر أخي خلدون مع ابنه هيثم وأخي فريز وابني حماد ضمن شركة أسميناها شركة "نادر وخلدون أتاسي".

(ظل أخي خلدون يقود الشركة إلى وفاته رحمه الله في تموز 2011).
وقد نجحت الشركة في الحصول على بعض المناقصات الكبرى في سورية كانشاء فندق السيدة زينب وغيرها. كذلك رأينا أنه من المناسب التعاون مع شركة „يعقوبيان للتجارة والتعهدات" وأثمر هذا التعاون مشاريع إضافية جديدة منها على سبيل المثال فندق روتانا في اللاذقية.

وبهذا ينتهي الجزء الأول من الكتاب، وقد خصصته للهندسة والتعهدات والمشاريع الاقتصادية. أما أعمالي ومساهماتي في مجال السينما، فستغطي الجزء الثاني.

كان العمل في مجال السينما من النشاطات الكبيرة التي مارستها في حياتي. وقد يتساءل المرء: „ما الذي قاد المهندس نادر الأتاسي إلى السينما؟". لكي أوضّح هذا الموضوع لا بد من الإشارة إلى أنني كنت منذ أيام الدراسة مولعاً بأفلام السينما ومتتبعاً للجديد منها الذي تعرضه الصالات، بيد أن حادثة طريفة قادتني بعد سنوات إلى الاهتمام بالسينما كنشاط اقتصادي مارسته.

خلال مرحلة الدراسة الجامعية، وتحديداً عام 1942 كنت أسكن في في بيروت في بيت يخص سيدة اسمها „مدام هاني" وهي من عائلة محترمة كانت تؤجر ثلاث غرف من البناية التي تملكها، مما يؤمن لها دخلاً يساعدها على العيش. كنتُ مستأجراً إحدى الغرف، وجاري شاب يدعى إميل حداد. كنّا أصحاب، وكنت أعرف أنه خطب فتاة اسمها أولغا أجبع كانت تزوره في البيت وتعرفت عليها هي الأخرى. وبعد سنة تخرجت ورجعت إلى حمص ومضت أشهر وسنوات لم ألتق خلالها بإميل ولا بأولغا.

وفي عام 1950 كنت أنفذ مشروع الهاتف الآلي في حلب، فأقمت في فندق سميراميس المجاور لمقهى بننجيان أمام فندق بارون. وعند مروري أمام المقهى لفت نظري وجود صورة مغنّية تقدم وصلتها

ضمن البرنامج الليلي واسمها كهرمان. لاحظت الشبه العجيب بينها وبين تلك الفتاة التي كنت أعرفها باسم أولغا أجبع. فدخلت إلى المحل لأحجز طاولة على أن أسهر تلك الليلة مع صديقي جوزف خوري. وتصادف أن التقيت بكهرمان فسلمت عليّ فقلت لها „أهلا أولغا" فقالت لي: „لا تدعوني أولغا. أنا هنا إسمي كهرمان". وأضافت „أنت مدعوَ للسهرة الليلة، إذ أنني بعد انتهائي من الغناء سأجلس معكم، كما وأنك مدعو للعشاء أيضاً". حضرت في المساء وكانت الطاولة التي حجزتها كهرمان تضم توفيق الشماس (شريك نقولا قطان في سينما „دمشق") ومجد الدين الجابري (رئيس بلدية حلب سابقاً ووزير الأشغال مرتين من قبل) وتنافس الحاضرون وكلٌ يقول لي „أنت ضيفنا هذه الليلة، أنت وصديقك جوزيف خوري". وبعد أن انتهت كهرمان من وصلتها سهرت معنا، وتواعدنا على تناول طعام الغداء في اليوم التالي معاً.

على مائدة الغداء قالت إنها ستبقى أسبوعاً في حلب وبعدها ستعود إلى بيروت بسبب انتهاء عقدها. سألها جوزيف خوري: „ما رأيك وأنت في طريق عودتك أن تمرّي بحمص وسنقيم لك حفلة في مقهى الروضة الذي يملكه الاستاذ نادر الاتاسي؟". اتفقنا على المبدأ، أما بخصوص المبلغ فطلبت 600 ليرة عن الحفلة. اقترح جوزيف خوري „إدفع لها يا بيك 300 مقدماً". فدفعت لها 300 ليرة مقدماً وقلت لها يوم الحفلة انا سأحضر وأقلك بسيارتي. وفي الموعد المحدد حضرت

وأخذت كهرمان وأمها التي كانت ترافقها واتجهنا إلى حمص، وكان جوزيف خوري قد سبقنا إليها لتحضير ما يلزم للحفلة من دعاية وترتيبات.

وصلنا إلى حمص وأنزلت كهرمان ووالدتها في فندق رغدان الذي كنت أملكه ايضاً، وذهبت إلى سينما أوبرا التي كان يملكها جوزيف خوري ووجدت في الشوارع يافطات مكتوب عليها „إنشرحوا وخذوا نشقة واحضروا لمشاهدة كهرمان". وعلى اليافطات صورة لامرأة مقنعة. وصلت إلى السينما وسألت عن صديقي فقيل له إنه مختفٍ ولا يجرؤ على الظهور لأنهم يفتشون عليه! سألت „من؟" قالوا: „المشايخ في حمص مجتمعون وهم معترضون على إقامة هذه الحفلة وينتظرون وصولك". أسرعت إلي منزل عمي الحاج عاطف الأتاسي فوجدت عنده مجموعة من المشايخ، أحدهم بدأ الحديث متوجهاً إليَّ بالقول: „يا أستاذ نادر، أنت زينة شباب سوريا وليس مقبولاً منك هذا التصرف الذي يسيء لسمعة هذا البلد ولايمكن لنا أن نوافق على ذلك ونطلب منك أن تتدخل لإلغاء هذا المشروع". فقلت له ولهم إن البطاقات قد بيعت ولايمكن إلغاء الحفل، وما أستطيع عمله هو أن أغادر البلد يوم الحفلة، لأن هذا العمل ليس عملي، بل يخص مجموعة من الشباب. أصروا على مطلبهم، فاقترحت عليهم حلاً وسطاً: بدلاً من إقامة الحفلة في مقهى الروضة سنقيمها في سينما الأوبرا وبهذا يكون الجو مؤاتياً ومناسباً.

في يوم الحفلة امتلأت مقاعد سينما أوبرا بالناس وكنتُ جالساً مع والدة كهرمان في الكواليس وكهرمان تغني والناس منسجمون والتصفيق يعلو تقديراً والحفلة تسير على أحسن مايرام. وإذا بانفجار يدوي نتيجة إصبع ديناميت موضوع في دورة المياه فهب الناس محاولين الهرب وكان الازدحام شديداً وكاد الخوف والهلع يحدثان نتائج خطيرة. هربت كهرمان إلى الكواليس وهي تصرخ „يا أمي". هدأت من روعها قائلاً „أنتم في زغرتا (وهي كانت من أصل زغرتاوي) تطلقون النار في الأفراح والمناسبات، فلماذا هذا الخوف؟ عودي إلى المسرح وانقذي هذه الحفلة، فعادت كهرمان إلى المسرح وغنت أغنية „يا قلبي" وهي تتضمن موالاً فتعالى صوتها في هذا الموال الذي يقول:

يا سامعين الصوت... أنا بجيرتكم

مقطعة الأوصال .... واقعة بديرتكم

فعاد الناس إلى مقاعدهم وعادت هي إلى اتمام الأغنية وأنقذت الحفلة. وهكذا كانت بداية انطلاق الحفلات الفنية في حمص، ثم أصبحت المدينة تضم أماكن عدة بمستوىً عالٍ إلى جانب مقهى الروضة.

في اليوم التالي قال لي جوزيف خوري „أنا لم أعد أستطيع احتمال هذا العبء لوحدي، سيما وأن مبنى سينما أوبرا ملك لأعمامك، فلا

بد أن تدخل شريكاً معي في الصالات". وكان يملك إلى جانب سينما أوبرا سينما القاهرة وسينما الزهراء. هكذا أصبحت شريكاً لجوزيف خوري في صالات السينما في حمص. ومن هذا الباب وجدت نفسي أدخل عالم السينما.

نصف دور السينما في سوريا

في مطلع عام 1958 إتصل بي المهندس نور الدين كحالة وأخبرني بأنه يملك أرضاً في حمص في موقع ممتاز تصلح لمشروع إنشاء دار للسينما، خصوصا وأنه في المدينة لا توجد صالة بمستوى جيد، وعرض عليّ أن أشترك معه في إنشاء هذه السينما، وتكون حصته 25% من المشروع . وافقت على ذلك.

أشرفت على هندسة المبنى من حيث التصميم ومخططات التنفيذ، وباشرنا العمل بسرعة فائقة. وفي بداية إنشاء البناء، وكنا مازلنا في مرحلة تثبيت الأعمدة والجدران، ولم نصبّ السقف بعد، جاء جوزيف خوري حاملاً معه صورة تمثال من فيلم „هرقل والملكة ليديا" وقال لي بأن هذا الفيلم سيكون فيلم الافتتاح وبأنه سوف يكون شريكي في السينما. (عام 1959 أسست مع جوزيف خوري „الشركة الشرقية" تولى إدارة واستثمار دور السينما خاصتنا في حمص)

حين افتتحت السينما عام 1958 كان نور الدين كحالة قد أصبح وزير الأشغال في أول حكومة بعد الوحدة بين سوريا ومصر. ثم تولى عام 1960 رئاسة المجلس التنفيذي للإقليم الشمالي، أي ما يعادل رئيس الحكومة.

لاقت "سينما حمص" نجاحاً هائلاً إذ كان الناس يعتبرونها المكان الأنسب للقاءات. كان الذهاب إلى السينما بمثابة تمضية سهرة ممتعة للعائلات، لذلك كانوا يتوجهون إليها في أجمل ملبس وأبهى زينة. كانوا يتهافتون للحجز مسبقاً للحصول على أماكن لهم قبل يوم أو يومين، وكان تغيير الفيلم يتم كل يوم سبت، ليلة الأحد. وانعكس ازدهار "سينما حمص" على مرافق أخرى في المدينة، وزاد الإقبال على صالونات "الكوافور" قبل السينما، وعلى المطاعم بعد مشاهدة الفيلم. كانت أيام عزّ السينما.

كانت هذه الصالة بداية مشروعي السينمائي الخاص الذي أخذ في التوسع والنمو. والعمل في السينما ـ من حيث هي صناعة وتجارة ـ ذو فروع. ثمة منتج الفيلم وثمة صاحب دار السينما التي ستعرض الفيلم. كل مشروع فيلم سينمائي يحتاج إلى منتج لينفذه وإلى صاحب صالة لكي يعرضه على الناس. وبعد نجاح "سينما حمص" انطلقت في مشروعي لامتلاك أكبر عدد من الصالات في مناطق مختلفة من سوريا. وخلال ثلاث سنوات (1958 ـ 1961) أصبحت صاحب الكلمة الفصل في نصف صالات سوريا، يعني 15 من أصل 30 صالة من الدرجة الأولى. معظم هذه الصالات كان ملكي، وبعضها كان لي شريك فيها، وفي صالة واحدة كنت المستثمر. وهي على النحو التالي: في مدينة حمص: بعد سينما حمص، تملكت صالتي سينما "الفاروق" و"الأمير" (اشتريتهما من نقولا قطان) إضافة إلى الصالات التي كنت

مشتركاً بها مع جوزيف خوري وهي „أوبرا" و"القاهرة" و"الزهراء" في دمشق: كنت أملك سينما "دمشق" بالشراكة مع توفيق الشماس (ثم صارت ملكيتي وحدي وقمت بتطويرها وسترد تفاصيلها لاحقاً) وسينما „الأهرام" (استثمار). أما في حلب فتملكت صالات „الفؤاد" (من مجموعة قطان) و"فريال" و"ريالتو" وصرت شريكا في سينما „الشرق". وفي اللاذقية: إضافة إلى سينما „اللاذقية" و „شهرزاد" (من مجموعة قطان) أسست سينما „أوغاريت" التي كان أصحابها قد باشروا ببنائها ولم يكملوها فأكملتها وكانت من أكبر الصالات وأفخمها.

وهناك قصص طريفة حدثت خلال تملكي هذه الصالات. كانت شركة السينمات اللبنانية السورية قد أعلنت عن رغبتها في بيع صالات السينما الخاصة بها في سوريا فذهبت الى مكتب صاحبها نقولا قطان في بيروت وقلت له „علمت بأنكم ترغبون في بيع الصالات في سوريا، وأنا أرغب في شرائها". سأل: „هل تعرف كم هو ثمن هذه الصالات؟" أجبت: „أعرف. والفرق بيننا سيكون حوالي 10%". قال: „كيف ستسدد لي هذه المبالغ؟" قلت: „السعر الذي أقدمه هو مليون ونصف مليون ليرة. هذا المبلغ سيسدد على ثلاثة أقساط خلال ثلاث سنوات". قال: „ومن أين ستأتي بهذه الأموال؟" قلت: „سأدفع لك الآن شيك بقيمة 300 ألف ليرة، بصفة عربون". سألني: „ومن سينظم العقد؟" قلت: „من هو محاميك؟" فذكر لي اسمه وهو من

آل الهاني، فقلت له „أطلبه كي يأتي إلى مكتبك". فلما جاء المحامي عرفَه عليّ فقلت له „إنني أرغب في أن تكون محاميَ أيضاً وتتولى صياغة العقد". وهكذا كتبنا الشيكات ونظمنا العقود.

ذهبت إلى يوسف بيدس وقلت له يلزمني مبلغ 900 ألف ليرة لأني اشتريت صالات شركة السينمات اللبنانية السورية التي يملكها نقولا قطان في سوريا، فقال لي: „وكيف ستسدد هذا المبلغ؟ ومن أين؟" فأخبرته بأنني سأسدده خلال ثلاث سنوات من الإيرادات الناتجة من السينمات، وإذا تأخرت فسنمدد سنة أخرى، وطلبت تشجيعه، فاستجاب وقال: „إن رجلا مثلك يجب تشجيعه" واتصل برفيق السيوفي وكان مسؤولاً عن التسليف في بنك إنترا وقال له „الأستاذ نادر الأتاسي يريد مبلغ 900 ألف ليرة لإنجاز مشروعه في تملك صالات سينمائية في سوريا، فسهلوا له مهمته". وهكذا تم تملك هذه الصالات.

سينما "الشرق" في حلب

كانت سينما "الشرق" في حلب من أفخم صالات المدينة، يملكها إلياس عازار وصبحي فرحات مناصفة. شخصياً، رغبت في تملك هذه السينما، وبتعبير أدقّ كان النصف الذي يملكه صبحي فرحات هو غايتي. وكنا أنا وصبحي فرحات نملك مناصفة شركة „المتحدة للسينما" والنصف الآخر يملكه زكريا الطاهر، وهو أردني، فلسطيني الأصل من صفد ومقيم في عمان. طلبت من زكريا الطاهر مرافقتي إلى حلب لأنني أرغب في معاينة صالة السينما هناك. ذهبنا إلى حلب وشاهدت السينما وأعجبتني. وفي طريق العودة إلى دمشق، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر كما أذكر، طلب مني زكريا الطاهر التوقف قليلاً للاستراحة.

توقفت وفتح هو الراديو على إذاعة عمان. وكانت الصدمة - المفاجأة. قطعت الإذاعة البرامج وأذيع بأن هزاع المجالي رئيس الحكومة الأردنية، قد لقي مصرعه في حادث انفجار وقع في مبنى رئاسة الحكومة. فلطم الطاهر على جبينه وقال: „ لقد خرب بيتنا! ورحت أنا ضحية! كنا رتبناها على أساس أن يُقتل الملك حسين، وإذا بالانفجار يقضي على هزاع المجالي، وهو من عشيرة كبيرة ولن يسامح أهله الذين تسببوا في هذا الحادث! أنا انتهيت! خربت حياتي

وفقدت ثروتي بسبب ما حدث". حاولت أن أهدئ من روعه لكنه كان تحت تأثير الصدمة، ولم يسمع جيداً الخبر التالي الذي أفاد أن قنبلة أخرى إنفجرت عند مدخل المبنى بعد 20 دقيقة. قال زكريا الطاهر „لن أعود إلى عمان. سأقيم منذ اليوم في دمشق". (أدرك أن رأسه أصبح مطلوباً في عمان لضلوعه بشكل بارز في عملية الإغتيال بالتنسيق مع المخابرات السورية، وكان الملك حسين هو المستهدف فعلاً. ولاحقاً صدر حكم غيابي ضده يقضي بإعدامه. لكنه ظل آنذاك لاجئاً سياسياً في سوريا).

بعد عودتنا من حلب، اجتمعت بصبحي فرحات وقلت له „أريد أن أنهي علاقتي بالمتحدة للسينما التي أتقاسمها وإياك، إذ بعد الذي حصل لا يمكن أن أبقى شريكاً فيها". كان ذلك في فترة الوحدة مع مصر وكان صبحي فرحات، وثيق الصلة بعبد الحميد السراج وبرجاله الذين يديرون جهاز المخابرات، ويخطط ليصبح نائباً في مجلس الشعب. وقدّرت أنه لا يمكن أن يتخلى عن حصته في „المتحدة للسينما" فوجدتها فرصة مناسبة لتملك سينما „الشرق". قلت له: „سأعطيك نصف الشركة المتحدة مقابل أن تعطيني حصتك في سينما الشرق" فأجابني بأنه لن يتخلى عن أي واحدة منهما وسيدفع لي قيمة حصتي. كنت أعرف بأن المال اللازم لذلك ليس متوفراً لديه، فقلت له „نظّم عقداً بهذا الشأن، فان دفعت تكون قد تملكت الشركة بكاملها، وإذا لم تدفع في الوقت المحدد فعندئذ تكون

قد تملكت الشركة وتخليت عن السينما وسأدفع لك ثمن حصتك فيها". ثم وقّعنا الاتفاق المتضمن لهذه الشروط.

سافرت بعد ذلك إلى حلب وبدأت التحضير لاستلام السينما وتنظيم العقود مع الياس عازار الخاصة بكيفية إصلاح السينما، فسألني الياس عازار: „هل أنت واثق من أن صبحي فرحات لن يدفع؟ „ فأجبته: „أنا متأكد، دعنا نرتب معاً شؤون السينما".

وبالفعل في موعد تنفيذ الاتفاق وتسديد السندات ذهبت الى المصرف وأنا مستعد مالياً. قررت أن أنتظر حتى نهاية الدوام، فإذا لم يأت صبحي فرحات ويدفع ما عليه تكون حصته في السينما قد أصبحت ملكاً لي. وبالفعل لم يأت في الموعد المحدد، فدفعت المبلغ للبنك، وأصبحت شريكا بنسبة 50 % في „سينما الشرق" وتخليت عن „المتحدة للسينما" لصبحي فرحات الذي ظل يستثمرها في مصر لاحقاً، وهو أقام في القاهرة منذ مطلع الستينات وحتى وفاته (آب 2010). أما أنا فأنشأت عام 1967 „ الشركة المتحدة للتجارة والسينما" وهي شركة تعنى بإنتاج وتوزيع الأفلام السينمائية أيضاً.

سينما دمشق / سينما سيتي

بعد تملكي لصالات في كل من حمص وحلب واللاذقية كان لابد لي من أن أكمل المجموعة بصالة في العاصمة تكون كما سابقاتها إن لم تفقهم ضخامة وفخامة، ووقع اختياري على سينما "دمشق".

أنشئت سينما "دمشق" في أواسط الأربعينيات من القرن العشرين على قطعة أرض في منطقة تدعى جنينة النعنع، تضم مجموعة من مكاتب نقل الركاب إلى كافة المناطق السورية والبلاد العربية وكاراجات عديدة ومحلات بيع اكسسوارات السيارات. تم انشاء سينما "دمشق" في موقع يشرف على نهر بردى الذي كان ينساب في ذلك الوقت تحت جسر فيكتوريا باتجاه ساحة المرجة ومنها الى الغوطة، وكان النهر في ذلك الوقت مكشوفاً. وقد أشرف على بناء هذه الصالة المهندس فريد طراد وقد راعى في إنشائها عدم نصب أعمدة تحجب نظر المشاهدين. وبعد صعوبات فنية ومادية جمة تم افتتاح السينما يوم عيد الاضحى المبارك عام **1947**، وكانت تعرض مختلف أنواع الافلام من أميركية وعربية وغيرها.

كانت السينما مستثمرة من قبل نقولا قطان وتوفيق الشماس مناصفة. ذهبت إلى بيروت وبحثت مع نقولا قطان موضوع شراء حصته من سينما "دمشق" وكان تعاملي السابق معه عند شراء

الصالات في حمص وحلب واللاذقية قد ولّد جواً من الثقة، لذلك تم الاتفاق معه بسهولة. (كما اشتريت فندق "قطان" وهو في المبنى نفسه أملاً في استملاك كامل البناء في المستقبل). وبدأت عام **1961** باستثمار سينما "دمشق" بشراكة توفيق الشماس، وهي شراكة دامت بعد وفاته مع ورثته.

الى أن بدأ جمهور السينما يقل وأخذت العائلات تتجنب الحضور إلى السينما وذلك لعوامل عدة منها انتشار الفضائيات التي كانت تبث الافلام وكذلك قرصنة الفيديو والـ DVD والتي ما زالت حتى يومنا هذا دون حل! فقررت تحديث السينما ومواكبة التطور الحاصل في السينما العالمية والأميركية. عرضت الأمر على شركائي ورثة الشماس، لكن لعدم تمكنهم من التمويل اللازم لتكاليف المشروع الكبيرة اتفقنا على شراء حصتهم وبذلك أصبحت مالكاً لكامل سينما دمشق.

أقفلت السينما وباشرت العمل على تحديثها، فوضع المهندسون التصاميم والخرائط وبدأ تنفيذ المشروع وأصبحت أحدث وأفخم دار سينما في سوريا، لا مثيل لها في لبنان أيضاً. درة صالات الشرق أصبحت تدعى „سينما سيتي". تضم صالتين للعروض السينمائية، مجهزتين بأحدث الوسائل السمعية والبصرية وبأفخم المقاعد، كما يضم المجمع مطاعم يديرها ويعمل بها اختصاصيون.

تم افتتاح „سينما سيتي" عام 2009 بفيلم „ سيلينا „ الذي أنتجته والمأخوذ عن مسرحية „هالة والملك" للأخوين رحباني. (إلى عودة للحديث عن هذا الفيلم). وفيها أصبحت الأفلام تعرض متزامنة مع بداية عرضها في أميركا. ودخل عصر الإنترنت أسلوب التعامل في السينما بحيث تتم بعض الحجوزات بواسطة شبكة الانترنت. وهكذا أعادت هذه الصالة الحياة السينمائية إلى سوريا.

وقد أوكلت إلى المهندس نبيل قمورية الذي أشرف على تحديث السينما وتحويلها إلى ما هي عليه شرح تفاصيل إنجاز هذا المشروع، في ملحق مثبت في نهاية هذا الكتاب.

سينما "الأهرام" في دمشق

في عام 1961 حضر إلى مكتبي في دمشق مدير البنك العربي بالعاصمة السورية وأخبرني بأنه واقع في مشكلة ولا أحد يستطيع مساعدته في حلها سواي. تتلخص هذه المشكلة في أن البنك قام بتسليف مبلغ نصف مليون ليرة إلى السيد صبحي فرحات الذي لا يملك إمكانية إيفاء هذا الدين، إلا أن البنك يملك حقوق استثمار سينما "الأهرام" بدمشق المملوكة من قبل صبحي فرحات تأميناً لهذا الدين. وكانت سينما "الأهرام" تلفت نظري دوما لموقعها المتميز وكنت أرغب في إضافتها إلى المجموعة التي كنت أملكها في سوريا. قلت لمدير البنك العربي "إنه في حال موافقة صبحي فرحات فأنا مستعد لاستثمار السينما بما تساويه وأسدد لكم الدين خلال خمس سنوات بمعدل مئة ألف ليرة سنوياً". وهكذا تم الاتفاق.

وبالرغم مما كان لها من ميزات لم تكن سينما "الأهرام" تدار بالشكل الجيد، وهذا ما منع صبحي فرحات من تسديد الدين. استلمناها وقمنا بإجراء ما يلزم من إصلاحات للصالة والواجهات وبدأنا بالاستثمار أواخر العام 1961.

وجدنا صعوبة في بادىء الأمر في الحصول على الأفلام لأن الموزعين كانوا يفضلون عرض أفلامهم في سينما دمشق - التي كنت

مالكها . لأن مردود عرض الأفلام فيها أفضل. اضطررت الى أن أقوم باستيراد أفلام لتغذية السينما واستعنت بالسينمائي الصديق تحسين القوادري وطلبت منه استيراد الأفلام من بيروت أو من أي مكان آخر يراه مناسباً.

ذات يوم، وقبيل حلول أحد الأعياد، كنا نقوم باختيار أحسن الأفلام لعرضها في صالاتنا المتعددة. فيما يخص سينما "الأهرام"، قدم لي تحسين القوادري فيلما بالاسود والأبيض إذ تعذر عليه جلب فيلم أفضل. وكعادتي في كل عيد، كنت أتصل مساء بجميع الصالات التي أملكها أو أستثمرها بقصد الاطلاع على الإيرادات اليومية لكل منها. ولم أكن متحمساً لمعرفة إيرادات سينما "الأهرام" إذ كنت لا أتوقع نتائج جيدة. وبعد معرفة نتائج كل الصالات إتصلت أخيراً بسينما "الأهرام" فلم يرد أحد على الهاتف. حاولت ثانية وما من مجيب. في المرة الثالثة رد مدير الصالة فصرخت بانفعال متسائلاً لماذا لم يرد على مكالماتي السابقة، فقال لي: "يا معلمي لم يكن بإمكاننا الوصول إلى الهاتف من شدة الإزدحام. إننا نقدم الآن الحفلة الثامنة لهذا اليوم وهذا لم يحصل سابقاً والناس تسد الطريق ولوحة "لم يبق أماكن " معلقة على الباب طيلة النهار. طبعا سعدت بهذه النتيجة، وحاولنا المحافظة على هذا المستوى ولكن لم يتيسر ذلك لمدة طويلة.

في أحد الأيام جاءني محمود السماوي، وهو موزع أفلام، ومعه فيلم هندي وطلب مني القبول بعرضه في سينما "الأهرام" وكان

قد عرضه على كافة الصالات ولم يقبل أحد بعرضه. وكان الفيلم بالألوان الطبيعية واسمه "جنكلي" ومن بطولة شامي كابور. ولعدم وجود فيلم متوفر في حينه وافقت على عرض هذا الفيلم الهندي. وكانت المفاجأة الكبرى لكل العاملين في الوسط السينمائي! حصد "جنكلي" نجاحاً منقطع النظير، غير مسبوق، ودام عرضه حوالي ستة أشهر! وأصبح المشاهدون - من كل الفئات والأعمار - يحضرونه مرات ومرات، وقد حُفظت أغانيه الهندية وباتت على كل شفة ولسان تردد في الشوارع ليل نهار، وأشهرها أغنية "سوكو سوكو". وعادت لافتة "لم يبق أماكن" تتصدر واجهة سينما "الأهرام" لشهور.

بعد هذا النجاح خطر لنا أن ندعو شامي كابور شخصياً إلى سوريا ليحضر عرض الفيلم مع الجماهير. وافق وجاء، وأقمنا له حفلة تعارف مع وجهاء البلد وذلك في ملهى "البلو أب". وخلال الحفلة طلبت من شامي كابور القيام بغناء بعض أغاني الفيلم تكريماً للعائلات الموجودة في استقباله. وكم كانت المفاجأة كبيرة حين قال لي بأنه لا يجيد الغناء! وإن مانراه في السينما ليس سوى مرافقة صوت المغني الأساسي بتحريك الشفاه فقط! وقعت في حيرة وكانت النتيجة أن طلبنا منه مرافقة أغانيه المسجلة على أشرطة وصعد معه إلى المنصة الفنان دريد لحام وتلافينا الموضوع وسط فرح الحاضرين وتهليلهم. وكانت حفلة ناجحة على كل صعيد. ومن بعد اشتركنا مع محمود السماوي في استثمار الفيلم في باقي المدن

السورية. وكان نجاحاً كبيراً لسينما "الأهرام" استمر حتى انتهت مدة الإستثمار وتم إيفاء الدين للبنك العربي واستلم السينما صبحي فرحات الذي كان ينتظر ذلك بفارغ الصبر وأدارها بطريقته، وهكذا أعنته على أن تبقى السينما له.

تحسين "بك" قوادري

بعدما أصبحت مالكاً لنصف عدد صالات السينما في سوريا، فكرت في خوض مجال إنتاج الأفلام. وقبل أن آتي على سرد الذكريات، أود أن أذكر تحسين القوادري الذي كان عنصراً أساسياً رافقني في إنتاج العديد من الأفلام السورية واللبنانية. وكنت قد تعرفت عليه بموقف طريف، ما زلت أذكره.

ذات يوم كنت في مكتب سينما "القاهرة" بحمص مع جوزيف خوري، وكنّا نتخذه مقراً لنا للتداول بشأن الصالات وبرمجة الافلام فيها، وإذا بشاب ظريف يدخل علينا ويغمرني بالأحضان ويقول لي: "أنا بعرَفك على حالي. أنا تحسين بك قوادري" فقلت له: "ما بيمشي الحال تحسين لوحده؟" فقال: "لا، هيدي مكلفتني كتير! وأنا سمعت عنك كتير وعن مشاريعك واهتماماتك في الصالات، وأنا لدي ثلاثة افلام اشتريتها من جوزيف فنشنتي في بيروت وسأعطيك إياها لعرضها في سينما حمص بعد إضافة 10% على سعرها كربح لي، وإذا بدّك تلحَ عليّ كمان، ما بدي الزيادة!". وتناول حقيبته التي يحملها وأخرج منها آلة كاتبة وبدأ بطباعة العقد.

بعد التعامل التجاري نشأت صداقة بيننا ولا أخفي أنني كنت

أستظرف تحسين قوادري للغاية، وأقدر همته إذا طلبت منه شيئاً.
تعاون معي في تموين سينما "الأهرام" حين كنت أستثمرها، ولما خضت غمار الإنتاج استدعيته ووضعت بتصرفه الإمكانات المادية، فشمرَ عن ساعديه وبدأنا بإنتاج عدد من الأفلام في لبنان وكانت ذات طابع تجاري يمكنها أن تغذي الصالات وتعطي مردوداً لهذا الاستثمار. كانت حصيلة هذا النشاط مع تحسين قوادري ما يقارب عشرة أفلام، سأذكر تفاصيل عنها في فصل لاحق.

وفي هذا الفصل أود أن أطلع القراء الأعزاء على بعض من طرائف تحسين "بك". ومنها أنه حين تعاقد مع المطربة صباح لتقوم ببطولة فيلم "عقد اللولو"، كتب في العقد بأن أجرتها هي 5000 ليرة على ما أظن، لكن المهم أنه في البند المتعلق بكيفية الدفع، كتب تحسين "حسب ما يتيسر". وطبعاً لم تقرأ صباح تفاصيل العقد. وأثناء التصوير، وكلما طالبته صباح بدفع مبلغ من أصل أجرها، كان يقول لها "ما تيسر بعد"! فتقول: "شوهيدي ما تيسر؟" فيقول لها: "إقرأي عقدك" ما جعلها تأتي إليّ قائلة: "في عندك شيك اسمه ما تيسر؟". ضحكت وأعطيتها المبلغ الذي طلبته.

وأثناء تصوير فيلم "لقاء في تدمر" ذهبت ومعي تحسين قوادري لنسهر في ملهى الربوة واتخذنا مكاناً هادئاً. وكانت يسرى البدوية تغني هناك. وهي بطلة فيلم "لقاء في تدمر". وكانت أمية لا تعرف القراءة والكتابة. لكنها كانت ذكية. حين كان المستمعون يكتبون

ما يريدون سماعه من أغانيها، كانت تعطي الورقة إلى قائد الفرقة الموسيقية ليقرأها ويهمس لها بالمطلوب. قرر تحسين "بك" أن يداعبها فطلب مني ورقة بيضاء. ناولته ورقة أخذها وطواها وهي بيضاء وأرسلها إلى يسرى، فلما فتحتها وجدتها بيضاء فصرخت على الفور: "وينو هالإبن الحرام تحسين؟".

حزنت جداً حين توفاه الله في خريف 2002. خسرت منتجاً قديراً وصديقاً وفيـاً. كان بخفة دمه وبراعة تعامله مع الناس وذكائه الفطري الحاد ونشاطه ركناً أساسياً في صناعة السينما في سوريا.



الملصق الاعلاني لفيلم "يا سلام عالحب"

"يا سلام على الحب"

بعد صدور قرارات التأميم (1961) التي أصابت القطاعات الاقتصادية بضربة كبيرة وخاصة في الشركات المساهمة والهامة، وجدت بأن قطاعي السينما والتعهدات لم ينلهما التأميم، فقررت أن أستثمر بقدر المستطاع في هذين المجالين. في ما يخص الإنتاج السينمائي رأيت أنه من الأسهل أن أبدأ الصناعة في لبنان.

وكنت رسمت لنفسي مخططا لمنهج عملي في قطاع السينما، مستلهما برنامج الاقتصادي المصري الكبير طلعت حرب. بعد إكمال ما يتعلق بالصالات التي أملكها، قررت أن أقوم بإنتاج الأفلام التي ستعرض في صالاتي. وحدث ما جعلني أسرع في تنفيذ برنامجي، إذ قام القطاع العام في سوريا بحصر استيراد الأفلام في المؤسسة العامة للسينما الحكومية. إذاً، فلنبدأ الإنتاج من بيروت.

كان يوسف بيدس رئيس بنك إنترا الذي ساعدني في امتلاك الصالات قد أصبح صديقاً لي، وكنا نقضي بعض السهرات معاً. وكان محمد سلمان (المخرج والممثل والمطرب والملحن) يلحّ على يوسف بيدس أن يساعده ليتمكن من إخراج فيلم جديد. وكان يوسف بيدس يستظرف محمد سلمان (وهو ظريف فعلاً) فطلب مني أن أنتج فيلماً من إخراج محمد سلمان وطمأنني معرباً عن استعداده للمساعدة في تمويل

إنتاج هذا الفيلم، وأردف يقول "محمد سلمان يقلقني بالتلفونات، وأنا أرغب في مساعدته وسأكون لك شاكراً في حال تنفيذ إنتاج هذا الفيلم". فدعيت محمد سلمان وقلت له بأني سأنتج الفيلم.

ولم يكن في لبنان في تلك الأيام ممثلات وممثلين لهم أسماء نجوم، لذلك كان الاتجاه نحو المطربات والمطربين. رشح محمد سلمان نجاح سلام لدور البطولة النسائية. وكانت مطربة معروفة وإحدى أغنياتها ذائعة الصيت (برهوم حاكينا) وكانت أثناء أقامتها في القاهرة من قبل قامت ببطولة تسعة أفلام. وفي لبنان كانت قد قامت ببطولة "مرحبا أيها الحب" (من إخراج محمد سلمان أيضاً) وكان هذا الفيلم حقق نجاحاً تجارياً كبيراً لدى عرضه. قلت له: "حسناً.. ومن هو البطل؟" قال: "فهد بلان". فسألته "من هو فهد بلان هذا؟". وهنا لا بد لي من الاعتراف، أنني في مجال الغناء كنت أعرف وأستمع لأغاني مشاهير الطرب: أم كلثوم وعبد الوهاب وأسمهان وفريد الأطرش وفيروز ووديع الصافي وصباح وسواهم ، لكنني ما كنت متابعاً الأصوات التي أطلت على الساحة الغنائية حديثا. قال لي محمد سلمان: "تفضل نطلع بسيارة تاكسي". وعند انطلاقنا قال لسائق التاكسي "ما عندك شي موسيقى تسمعنا ياها؟" ففتح السائق المسجلة وإذا بصوت فهد بلان يغني أغنية " لركب حدك يا لموتور" فالتفت سلمان إليّ وقال: "شفت؟" قلت له "وسمعت"! واقتنعت بترشيحه.

بالنسبة إلى بقية الأدوار الرئيسية، اخترنا الممثل الكوميدي اللبناني شوشو (حسن علاء الدين) وكان مشهوراً كنجم تلفزيوني ولم يكن قد أسس مسرحه بعد، والمونولجست المصري المقيم في بيروت حسن المليجي. وكان سيناريو الفيلم يقضي بوجود مجموعة مطربين من معظم البلاد العربية، وكنا قد اخترنا معظمهم ومازال ينقصنا مطرب يمثل الشخصية العراقية .جاءني سلمان ودعاني - على نفقتي - إلى سهرة في مطعم طانيوس في عاليه، وكان في برنامج السهرة المطرب العراقي الكبير ناظم الغزالي الذي أتحف الجمهور بأدائه الرائع وبالتنوع في أغانيه بين القصائد الفصيحة والأغاني الشعبية. وقد أنهى وصلته برائعته "أي شيء في العيد أهدي إليكِ" وأتبعها بـ "طالعة من بيت أبوها". قلت لسلمان "هذا هو المطرب العراقي". تسلل سلمان إلى الكواليس وعاد ليخبرني أنه اتفق مع ناظم الغزالي على الحضور إلى استديو بعلبك في اليوم التاليً لتسجيل الأغنيتين لفيلمنا. سألت سلمان: "ما المبلغ الذي تريد أن تعطيه إياه؟" أجاب: "سوف نعطيه ألف ليرة". ناولته المبلغ. وفي اليوم التالي تم التسجيل فعلا. وقال سلمان إن ناظم الغزالي سيسافر مساء إلى العراق. (فعلا سافر، وبعيد وصوله إلى بغداد وافته المنية وأسلم الروح في 23 تشرين الأول 1963). بعد مغادرته الاستوديو سألت سلمان "كم دفعت له فعلا؟" قال: "بالحقيقة أعطيته 500 ليرة أعادها لي ولم يقبل أن يأخذها. قدم الأغنيتين هدية، وأنا أعتبر الألف ليرة هدية منك لي"! ضحكت وتركت المبلغ له.

إنتهى إنتاج فيلم "يا سلام على الحب" في لبنان ونجح لدى عرضه نجاحاً كبيراً، كما عرض في سينما "الأهرام" بدمشق (وكنت أستثمرها وقتذاك) ولاقى الفيلم النجاح ذاته. وهكذا كانت بداية دخولي مجال الإنتاج السينمائي.



أول فيلم للثنائي دريد لحام ونهاد قلعي

بعد نجاح "يا سلام ع الحب" إستدعيت تحسين قوادري ووضعت بتصرفه الإمكانات المادية اللازمة، فشمّر عن ساعديه وبدأنا بإنتاج عدد من الأفلام في لبنان وسوريا، كانت ذا طابع تجاري بمعنى أنها ستؤمن أفلاماً للصالات التي أملكها، كما أنها ستعطي مردوداً للإستثمار المالي. وقد حركت هذه الأفلام الوسط السينمائي في سوريا ولبنان. كنت في هذه الأفلام الممول ولم أضع إسمي في العناوين أو مواد الدعاية، وإن ظهر أحيانا عبر „المتحدة للتجارة والسينما" التي أملكها. جلّ هذه الأفلام أنتجها تحسين قوادري، عفوا تحسين „بك"!

ذات يوم عام **1964**، جاءني تحسين بك مع شاب قدّمه لي معرّفاً بأنه مدير التصوير محمد الرواس صاحب شركة „سيريا فيلم" (بالإشتراك مع مهندس الديكور سعيد النابلسي ومدير الاضاءة فوزي الرواس) وقال إن لديهم مشروع فيلم سينمائي يرغبون في إنتاجه وإنهم إتفقوا مع دريد لحام ونهاد قلعي للقيام لتمثيل الدورين الرئيسيين. وكان الاثنان نجمين لامعين في التلفزيون السوري اشتهر دريد بشخصية (غوار الطوشة) ونهاد بشخصية (حسني البورظان). سيناريو الفيلم وضعه دريد لحام ونهاد قلعي استناداً الى اسكتش

غنائي قصة دريد لحام وقدم على المسرح عام 1961 بمناسبة مرور عام على افتتاح التلفزيون السوري (الاقليم الشمالي في ذلك الوقت) بعنوان (عقد اللولو). وقد حمل الفيلم السينمائي العنوان ذاته. قال لي تحسين: „الجماعة استعدوا، ولم يبق إلا البدء بالعمل" . وسكت لحظة لكي يمهد للجملة التالية وكنت توقعتها فملأت الفراغ بقولي „حسنا.. فليبدأوا" . فأردف تحسين قائلا: „لكن ينقص التمويل" والتفت موجها الحديث لي: „أنا وعدتهم بأن ينتجوا الفيلم على أساس أن تقوم أنت بالتمويل. لا يدفعون شيئا ويتقاضون ربع الأرباح والباقي يكون لي ولك" ثم صحح „لك ولي"!

وافقت على الاقتراح وطلبت أن يكون الفيلم بالألوان الطبيعية وذا مستوى جيد، يكون فاتحة سلسلة أفلام. ثم بدأ التحضير للتصوير فتعاقد تحسين بك مع المطربة الشهيرة صباح للقيام بدور البطولة النسائية واتفق مع فهد بلان ليكون البطل. واخترنا يوسف معلوف لاخراج الفيلم. (كان قد أخرج العديد من الأفلام الكوميدية في مصر من بطولة اسماعيل يس، وقد هجر القاهرة واستقر به المقام في بيروت وأخرج فيلم „الأجنحة المتكسرة" عن قصة لجبران وبطولة نضال الأشقر). أما بقية الأدوار فتوزعت على ملك سكر وصبري عياد وفتنه وإغراء ومجموعة كبيرة من الممثلين السوريين وكلهم أصبحوا فيما بعد نجوماً في السينما السورية بعد انطلاقتها.

بعد اكتمال التحضيرات تم تصوير الفيلم بالألوان الطبيعية. ولم يكن في سوريا آنذاك معمل لتحميض الأفلام الملونة وطبعها، فكنا نرسل المشاهد المصورة إلى معمل في فرنسا وننتظر تبليغنا بصلاحية نتائج التصوير.

عندما عرض فيلم „عقد اللولو" في سوريا لاقى نجاحاً جماهيرياً فاق كل تصور وانتقل عرضه إلى بقية الدول العربية ومازال يعرض حتى أيامنا هذه في مختلف الفضائيات. وكان هذا الفيلم بداية الانطلاقة الكبيرة للفنانين القديرين دريد لحام ونهاد قلعي، ومن بعد قاما بالبطولة المطلقة في كل أفلامهما التالية.

دفعنا النجاح الكبير الذي حققه فيلم „عقد اللولو" وانتشاره الواسع في أنحاء البلاد العربية لأن ننتج مجموعة من الأفلام مع „سيريا فيلم" وبالشروط السابقة ذاتها. وكان تحسين بك اللولب الفعال فيها. كان „ لقاء في تدمر" الفيلم الثاني وهو أيضا من بطولة الثنائي دريد لحام ونهاد قلعي ومعهما يسرى البدوية التي اخترناها لجمال صوتها وكنا قد أسندنا إليها دوراً صغيراً في „عقد اللولو" ونجحت فيه. وحافظنا على الفريق الفني نفسه: يوسف معلوف للإخراج والسيناريو لدريد لحام ونهاد قلعي. حقق الفيلم لدى عرضه نجاحاً كبيراً لما فيه من مناظر خارجية جميلة لمدينة تدمر وآثارها، ولخفة ظل الثنائي دريد ونهاد، وقد أحب الجمهور اللهجة البدوية في بعض حوارات الفيلم، كما استمتع بالاستعراضات العديدة ومنها

استعراض «مكتوب على سيوفنا، يا مرحبا بضيوفنا" الذي نال شهرة واسعة وقد تم تصويره في إحدى خيام القبائل العربية وكان الرقص والاستعراض يدور حول منسف كبير قدمه لنا شيخ القبيلة اتسع لسبعة خراف إضافة إلى كمية هائلة من الأرز، وكانت يسرى البدوية تغني وحولها الراقصون والراقصات يزينون الاستعراض.

وكالعادة إما يوقع تحسين بك نفسه في ورطة، أو يقع فيها رغم أنفه. لكن لا مفر من الورطة! في هذا الفيلم كانت يسرى البدوية قد اختفت بعد أن صورت بعض مشاهد الفيلم. ذهبت إلى البادية بناء على استدعاء من كبار رجال قبيلتها الذين أفهموها بصريح العبارة اعتراضهم على عملها. جن جنون تحسين بك عندما عرف بغياب يسرى وسأل عن مكان وجود عشيرتها وذهب إليهم وواجه يسرى التي أخبرته أنها لن تواصل التصوير في الفيلم لأن عشيرتها ترفض قيامها بهذا العمل وقد أخبروها أن لا أحد سيتقدم للزواج بها إن هى تابعت تصوير هذا الفيلم ! وأعادت له المبلغ الذي أخذته كسلفة! فأجابها تحسين بك بلهجته المحببة: «ولو! لا تخافي! لن تعاني من العنوسة.. إذا لم يطلب يدك أحد، فأنا سأتزوجك" وكذب عليها وقال إنه غير متزوج، فاقتنعت وجاءت وأكملت التصوير. وصارت كلما طالبت تحسين بتنفيذ وعده بالزواج بها يتهرب قائلاً : "مش فاضيين هلق" ويختلق لها الأعذار.

وفي أحد الأيام وبعد الانتهاء من تصوير الفيلم أتى اليّ تحسين بك وقال لي: „أرجوك أن تنقذني" فقلت له: „خيراً إن شاء الله؟" قال: „يسرى البدوية تنزل في فندق قطان واستدعتني إلى غرفتها وشهرت بوجهي مسدسها وهددتني بإطلاق الرصاص عليّ إنْ لم أف بالوعد وأتزوجها". ذهبت إلى فندق قطان وقلت ليسرى: „تريدين إطلاق النار على تحسين بك وقتله، فمن أين سنحصل على تحسين بك آخر؟" فقالت: „وعدني بالزواج، والآن يحاول التهرب من وعده. سأطلق النار عليه وأخلصكم منه". فتكلمت معها وأقنعتها بالهدوء ونسيان موضوع إطلاق النار فهدئت من روعها، لكنها بقيت على خلاف مع تحسين بك.

نـجـاح غـوار وحـسـنـي

كانت مجموعة العمل المؤلفة من المنتج تحسين قوادري وشركة "سيريا فيلم" متكاملة وتعمل بمحبة وتجانس ومتعاونة أشد التعاون مع الثنائي دريد لحام ونهاد قلعي في شخصيتي "غوار الطوشة" و"حسني البورظان". وقد اثبت الإثنان موهبة كوميدية فائقة، انعكست بشكل إيجابي إذ ضَمِنَ وجودهما في فيلم ما نجاحه على الصعيد الجماهيري. وكسلسلة متصلة الحلقات كان النجاح يولد النجاح. إذ يرفع نجاح الفيلم الأول من حماسة المنتج فيقدم على إنتاج الفيلم الثاني.

شخصيا ساهمت في إنتاج عدد وافر من الأفلام التي قام ببطولتها دريد لحام ونهاد قلعي. وكما ذكرت سابقا: كانت مساهمتي في هذه الأفلام دعم تحسين قوادري لإنتاجها. ولم يعد ظهورهما في إطار الإنتاج السوري المحلي فحسب، بل تجاوز الحدود إلى إنتاج مشترك مع شركات من بلدان أخرى، وإلى تعاون مع مخرجين ونجوم عرب مشهورين.

"غرام في استانبول" من بطولة الثنائي ونجوم أتراك ورفيق السبيعي (أبو صياح). وهو من إخراج سيف الدين شوكت (مجري

الأصل أقام في القاهرة وأخرج أفلاما مصرية ثم انتقل إلى بيروت وأخرج أفلاما لبنانية وسورية). وكان هذا الفيلم إنتاجاً مشتركاً مع تركيا. في "خياط للسيدات" شاركتهما البطولة المغنية والممثلة المصرية القديرة شادية، والفيلم من إخراج عاطف سالم. وفي "الرجل المناسب" تقاسم دريد ونهاد البطولة مع النجمين نادية لطفي وكمال الشناوي في فيلم من إخراج حلمي رفلة. وتحول السيناريست يوسف عيسى إلى مخرج لأول مرة في فيلم "اللص الظريف" وفيه كانت نيللي البطلة إلى جانب الثنائي. واستمر التعاون مع المخرج يوسف معلوف في أفلام أخرى منها "الصعاليك" والبطلة مريم فخر الدين، ومنها "1+1" مع سهير المرشدي وناهد يسري.

وكان فيلم "عندما تغيب الزوجات" (1978) خاتمة سلسلة أفلام الثنائي غوار وحسني. كان نهاد قلعي أصيب بنزيف في الدماغ خلف لديه شللاً نصفياً وما نجم عنه من صعوبة في النطق والحركة. وقد اضطر السيناريست فارس يواكيم إلى تغيير ملامح الشخصية التي أداها نهاد قلعي في الفيلم فجعله مصاباً وظهر في الفيلم مربوط اليد إلى الكتف. شارك في هذا الفيلم نجمان كوميديان سوريان آخران: عبد اللطيف فتحي (بدري بك) ونجاح حفيظ (فطوم حيص بيص) والممثلة اللبنانية ليز سركسيان وكانت آنذاك قد أقامت في القاهرة تمثل في الأفلام المصرية باسم الشهرة "إيمان". وممثلة فرنسية موريال مونتوسيه. وكان هذا الفيلم من إخراج مروان عكاوي، وكان

ثاني فيلم يخرجه بعدما أمضى سنوات كأنجح مونتير.

فيما بعد تعاونت مجدداً مع دريد لحام، بمفرده، في سلسلة من الأفلام المتميزة وسأعود للحديث عنها بمزيد من التفاصيل في فصل لاحق.



فيرور والاخوين الرحباني

خلال لقاء عام **1964** مع يوسف بيدس قال لي: „أشكرك على إنتاجك فيلم „يا سلام على الحب". أعدت لنا كل ما اقترضته من أموال للإنتاج، ونحب أن نعيد التعاون معك. اليوم راجعني الأخوان رحباني وطلبا مني تمويل إنتاج فيلم „ سفربرلك" وقد هيأوا له ما يلزم لإنتاجه وينقصهم التمويل. هم موضع ثقتنا، لكن نحن ـ كبنك إنترا ـ لا نود الدخول في تمويل إنتاج الأفلام مباشرة والتدخل في العقود وما يرافق عمليات الانتاج. بعد التجربة السابقة معك في إنتاج الأفلام وثقتنا التامة بك، نطلب منك القيام بتمويل الفيلم.

ليتك تجتمع مع الأخوين رحباني وفيروز. أنا أخبرتهم عنك ووجدتهم يعرفون من أنت ولديهم فكرة جيدة عن مشاريعك، وهم ينتظرون اللقاء بك. أقترح أن تزورهم في مكتبهم الكائن في شارع بدارو (حرش الكفوري). حدد لهم موعداً يناسبك واعقدوا الاجتماع". رحبت بالفكرة.

في الموعد المتفق عليه، اجتمعت مع كامل أعضاء شركة „فينيسيا فيلم" أي فيروز، عاصي ومنصور رحباني وشريكهم صبري الشريف الذي كان يتولى الإدارة العامة. كنت سعيداً بلقائي هذه العائلة التي رفعت مستوى الفن في لبنان والتي كانت موضع إعجاب الجميع". قالوا لي: „نحن ليس لدينا خبرة في الأعمال التجارية، لذلك نفوضك بأن تحضر الاتفاق بيننا بما يمليه عليك ضميرك وخبرتك، كي نتعاون في إنتاج هذا الفيلم. نحن في مرحلة التحضير إتفقنا مع مخرج فرنسي لقاء مبلغ 50000 دولار وأعطيناه سلفة على الحساب بانتظار الإتفاق النهائي معه. هو موجود حالياً في لبنان. كان المساعد الأول لجون فرانكنهايمر مخرج فيلم „القطار" من تمثيل برت لانكستر.ربما تعجلنا في اتخاذ هذا القرار قبل التعرف عليك. الآن نحن نودّ الاتفاق والتعاون معك. حدد الشروط التي تراها مناسبة ونحن نقبل بها. شكرتهم على الثقة وقلت: „أقترح عليكم مايلي: تكون حصتكم بالعمل مقابل إمكانياتكم أنتم والسيدة فيروز 25% من الأرباح وأعطيكم مبلغ 25 ألف ليرة كسلفة على

أجوركم وأكون مسؤولاً عن كل المصاريف وعن تعيين الأشخاص الذين يتولون الإشراف على عملية الإنتاج". وكان المحامي الياس حنا (زوج شقيقة الأخوين رحباني) حاضراً هذه الجلسة فطلبت منه أن ينظم العقد. بعد ذلك أقاموا لنا مأدبة غداء في مكتبهم مما رفع الكلفة بيننا. وهذه كانت بداية حكايتي مع الرحابنة في أعمالهم السينمائية.

كانت فيروز خلال الجلسة مرتدية „إيشارب" على رأسها وتصغي باهتمام لكل المواضيع المطروحة، لكنها لم تنبس ببنت شفة. فسألتها „وما هو رأي السيدة فيروز؟" فأجابت: „عاصي هو رئيس الشركة وهو مفوض من قبلنا ويتكلم باسم الجميع".

بعد ذلك تم استدعاء المخرج الفرنسي فتعرفت عليه، وقرروا تكليفه المباشرة باستكشاف مواقع التصوير وعيّنا له سكرتيرة لمرافقته في جولاته الاستكشافية.

ومضى شهر كنت خلاله مرتاحاً لسير عمليات التحضير إلى أن فوجئت بمكالمة من قبل صبري الشريف يطلب اجتماعاً لأن هناك مشاكل تعترض عملية الإنتاج وهو يرغب في شرحها لي. ذهبت إلى المكتب فأخبرني عاصي بأن اختيارهم للمخرج الفرنسي كان خاطئاً، وأنه بدل استكشاف أماكن التصوير المكلف بها كان يقوم بالنزهات مع السكرتيرة التي انتقيناها لمرافقته، وأضاف قائلاً: „لذلك قررنا

استبعاد هذا المخرج ونحن على استعداد لتحمل كل ما كبّدنا من مصاريف" فقلت لهم إني متضامن معهم في اتخاذ القرار وإن المبالغ التي قبضها المخرج وكذلك المصاريف سوف تدخل في نفقات الفيلم وسأتحملها معهم. عندئذ فوضوني باختيار المخرج المناسب.

وذات يوم وفيما كنت أغادر بناية „بيل فو" حيث أسكن، لكي أتوجه إلى مكتبي، فوجئت بالمخرج يوسف شاهين عند مدخل البناية المجاورة، فسلمت عليه بحرارة وسألته عن أحواله فقال لي إنه غادر مصر لأنه على خلاف شديد مع مؤسسة السينما وجماعة القطاع العام وهو سيقيم في لبنان وبصدد التفتيش عن عمل. فقلت له „وجدت طلبك" ودعوته إلى بيتي وقدمت له نسخة من سيناريو فيلم „سفر برلك" وقلت له „أدرس هذا السيناريو، هو من كتابة الأخوين رحباني وأرجو أن تبلغني رأيك". طلب مهلة أسبوع لدراسة الموضوع. بلغت الرحابنة بالمفاجأة وكانوا سعداء للغاية لأن اسم يوسف شاهين أشهر من نار على علم. وقلت لهم مازحاً „سيفرح صديقكم العزيز الشاعر سعيد عقل لأن يوسف شاهين زحلاوي الأصل".

وبعد أسبوع دعوت الجميع إلى مكتبي لمعرفة قرار يوسف شاهين. أدهشنا بقوله „بعد دراسة السيناريو أنا عاجز حالياً عن إخراج „سفر برلك" لأنه يتطلب جهوداً كبيرة من حيث انتقاء الاشخاص واستكشاف أماكن التصوير والتحضير المتقن مما لا يتناسب والوقت

المحدد لإنتاج الفيلم، لذلك أعرض عليكم تأجيل فيلم "سفر برلك" والاستعاضة عنه بفيلم "بياع الخواتم" عن المسرحية الغنائية الرائعة. أنا شاهدتها وأحببتها". وافق الحضور وأنا على رأسهم إذ كنت معجباً للغاية بمغناة "بياع الخواتم".

ثم بحثنا الشروط مع يوسف شاهين وكانت سهلة لأنه أحب المشروع وهو سعيد بإخراجه. وبدأ العمل الجدي لإنتاج فيلم "بياع الخواتم". وقدرنا له ميزانية 300 ألف ليرة لبنانية وكان الدولار في ذلك الوقت يعادل ليرتين لبنانيتين.



الملصق الاعلاني لفيلم " بياع الخواتم "

"بيـاع الـخـواتـم"

لدى البحث في الخطوات اللازمة لتنفيذ إنتاج فيلم „بياع الخواتم" طلب يوسف شاهين الاجتماع بالمنتجين ليطلعهم على منهج عمله. أبلغ الحضور أنه يريد أن يستأجر البلاتوه في „الاستوديو العصري" لبناء قرية هي التي سيتم فيها تصوير معظم مشاهد الفيلم حسب المواصفات المطلوبة في السيناريو. وشرح وجهة نظره بأن التصوير في قرية حقيقية يتناقض مع السيناريو القائم على الخيال والأسطورة. أدركت أن إخراج الفيلم بالصورة الممتازة سيلزمنا ببعض المصاريف الزائدة، فوافقت لصالح العمل. (الذين شاهدوا الفيلم رأوا القرية في اللقطة الأولى، وكان الديكور خلاباً فعلاً).

بعد ذلك، تم اختيار العناصر الفنية وكانوا معظم الذين اشتركوا في المسرحية من قبل إلى جانب فيروز: نصري شمس الدين، فيلمون وهبي، جوزيف عازار، إيلي شويري ووليم حسواني، هدى وسواهم. أما مدير التصوير أندريه دوماج فاستقدم من فرنسا وكذلك المصور روجيه تاليه. تم التعاقد مع العراقي صاحب حداد للمونتاج وكان أيامها مقيما في بيروت (من بعد صار مخرجا معروفا في بغداد) وعهدت إلى طنوس فرنجية بإدارة الإنتاج.

ثم فوجئت عندما قدم لي صبري الشريف كشفا تقديرياً للموازنة وقد

أصبحت بحدود 500 ألف ليرة لبنانية بدلا عن المبلغ المقرر سابقا وهو 300 ألف ليرة. ولكن لم يكن باليد حيلة، إذ أن الميزانية كانت مدروسة بدقة ومن الصعب الاستغناء عن أي بند منها وقد بذل جهودا قصوى من حيث العمل عليها والقيام بضغط مصاريفها قدر الامكان. وكان الرحابنة، من جهتهم، يحاولون الاقتصاد في النفقات، بيد أنهم فشلوا في ذلك، إذ وصلت المصاريف في نهاية العمل إلى 600 ألف ليرة لبنانية، وهذا المبلغ كان يعادل ميزانية فيلم أمريكي متوسط في ذلك الوقت. (إرتفع المبلغ مع 3 نسخ إلى 650 ألف ليرة).

استغرق التصوير شهرين توتر الجو خلالهما بين الرحابنة ويوسف شاهين غير مرة. ثمة قطبان يتميز كلٌ منهما بشخصية طاغية: يوسف شاهين وعاصي الرحباني. وكان صبري الشريف يتدخل لفضّ النزاعات الفنية وكنت أتدخل لفض الاشتباكات الخاصة بالشؤون المالية. والحق أن متطلبات يوسف شاهين الكثيرة كانت مبررة بأن همّه أن يقدم فيلماً ذا مستوى عالمي بغض النظر عن التكاليف، وهذه لا يتحملها المحيطون به أحيانا. أذكر أنني ذهبت مرة إلى الاستديو فوجدت العمل متوقفاً. سألت عن السبب فقيل لي إن يوسف شاهين يطلب مولّداً بقوة كبيرة جداً لأخذ لقطة هامة بالفيلم يحتاج فيها إلى إنارة القرية بكاملها، وإن عاصي يرفض استئجار هذا المولد. أقنعت عاصي بوجوب تنفيذ طلبات المخرج وأمّنا المولد وبدأنا تصوير اللقطة المطلوبة وكانت لفيلمون وهبي وهو يكلم الببغاء كي

تبلغ حبيبته بأنه يحبها. وبعد الانتهاء من تصوير اللقطة انتحيت بيوسف شاهين جانباً وقلت له „هذه اللقطة السخيفة التي احتاجت إلى كل هذه الإضاءة، أؤكد لك بأني سأقطعها من الفيلم وأبقي لك نسخة خاصة كي تحتفظ بها مع هذه اللقطة".

كنا نرسل النيغاتيف المصور إلى باريس بالبريد السريع للتحميض والطبع في معمل LTC . وحين عادت إلينا أولى المشاهد التي صورناها اجتمع المنتجون بالمخرج في سينما „غومون بالاس" (التي كنت أملكها) لمشاهدة النتائج وقد كانت مدهشة وقوبلت بالتصفيق والإستحسان وبالأخص من قبل فيروز. أذكر أن اللقطات التي شاهدناها كانت من أغنية „يا مرسال المراسيل" التي صورت في معمل للحرير. تلقت فيروز التهاني من الجميع وكانوا بغاية السرور، وسمعت صبري الشريف يقول للرحابنة: „فيروز بعد هذا الفيلم لن تكون فيروز التي عرفتموها سابقاً".

وتجدد الاستقبال الحسن بعد الانتهاء من المونتاج. قبل أن نعرض الفيلم على الجمهور، دعونا الموزعين والمنتجين والعاملين في الوسط السينمائي والصحافيين لمشاهدته في عرض خاص في سينما الكابيتول. عند انتهاء العرض علا التصفيق في الصالة استحساناً وإعجاباً. قمت بتوزيع الفيلم بنفسي في سوريا ولبنان، وسلمت توزيعه إلى العالم العربي إلى كمال قعوار وجان خوري (وهما من

أفضل وأنشط الموزعين) فباعوه بأسعار ممتازة. لكن المفاجأة جاءت من سوريا ولبنان، إذ برغم الإقبال على الصالات، لم يكن الإيراد مناسباً مع تكلفة الفيلم العالية، وكانت النتيجة أن بلغت خسارتنا في هذا الفيلم حوالي 300 ألف ليرة لبنانية. غير أن الإنصاف يقتضي مني أن أقول: صحيح أنني كنت - كأي منتج - أريد أن أربح من إنتاج الفيلم، لكن التعويض كان معنويا كون «بياع الخواتم» يبقى من أجمل أفلام السينما العربية.



الملصق الاعلاني لفيلم " سفر برلك "



الملصق الاعلاني لفيلم " بنت الحارس "

"سفر برلك" و"بنت الحارس"

خلال السنتين اللتين تلتا إنتاج "بياع الخواتم" اهتممت بتوزيع الفيلم في المناطق محاولاً تحسين إيراداته للتخفيف من حجم الخسارة. ثم اتخذت قراراً بدا غريباً للكثيرين. قررت أن أنتج "سفر برلك"، خصوصا وأن السيناريو كان مكتوباً وكنت قرأته وأعجبني.

كان الأخوان رحباني أول من علم بقراري. وانتقلت الدهشة إلى فيروز وصبري الشريف وبقية الأصدقاء المقربين. كانوا مشفقين علي ويعتبرون قراري مغامرة، فأنا لم أشفَ من خسائر "بياع الخواتم" بعد، وانتاج "سفر برلك" مكلف، وسألني عاصي الرحباني "أتريد أن تضاعف خسائرك؟" فأجبته "اتخذت قراري بعد دراسة" وفاجأتهم بأن اسم المخرج حاضر في ذهني، بل وأضفت قائلاً: "وأنا اجتمعت به واتفقت معه". وتركت مفعول النبأ يسري قليلاً، ثم اختصرت مهلة التشويق ولفظت الاسم: هنري بركات!

طبعا لقي اسم بركات الترحيب. هذا المخرج حفر اسمه في تاريخ السينما المصرية - والعربية - عبر أفلامه الرائعة "دعاء الكروان"، "في بيتنا رجل"، "الحرام"، "الباب المفتوح" وسواها. وكانت تربطني به علاقة صداقة. وكنا تعاونا معاً أيضاً في أفلام كنت مموِّلها مثل "الزائرة" الذي أنتجه عباس حلمي. وكنت معجباً بأسلوبه في

الإخراج، وأحترم فيه حرصه على المنتج، ولا غرابة في ذلك، فهو كان صاحب شركة إنتاج أفلام في القاهرة. وكان بركات في تلك الفترة من "الطيور السينمائية" المهاجرة من القاهرة إلى بيروت.

قرأ بركات السيناريو وأعجبه. واجتمعنا مع فيروز والأخوين رحباني وصبري الشريف. وبدأنا في اختيار العناصر التي ستكون إلى جانب فيروز: نصري شمس الدين، إحسان صادق، نزهة يونس، رفيق السبيعي (أبو صياح) ، ليلى كرم، صلاح تيزاني (أبو سليم) وعبد الله حمصي (أسعد) ومحمود مبسوط (فهمان) وبرج فازليان وزياد مكوك وسمير شمص ومجموعة من الممثلين اللبنانيين والسوريين، أضف إليهم أن عاصي ومنصور الرحباني اشتركا في التمثيل أيضاً. استقدمنا مدير التصوير من باريس واسمه كلود روبان، لكن المصور كان لبنانياً: روبي بريدي. وعهدنا إلى سعيد النابلسي بتصميم الديكور. أما اتفاقي مع الأخوين رحباني فكان بنفس الشروط السابقة: ربع الأرباح لهم، و25 ألف ليرة عند التنفيذ، وأضفت 15 ألف ليرة أجراً للنجمة فيروز.

استغرق التصوير شهرين في مختلف المناطق اللبنانية وفي بعض المناطق السورية. وكانت اللقطات المصورة تصلنا تباعاً من معمل التحميض والطبع في باريس، وبهرنا جميعا بجمال الصور واستبشرنا خيراً. وبالرغم من ضخامة الإنتاج، وكثرة مواقع التصوير وترتيب هذه المواقع لتقنع المشاهد أننا في زمن الحرب

العالمية الأولى، وبرغم حشد النجوم والممثلين، وكلفة التصوير بالألوان والسينماسكوب، لم تتجاوز تكلفة الفيلم مبلغ 400 ألف ليرة، بالضبط كما حددنا قبل بدء التصوير.

قبل اللقطة الأولى من الفيلم يظهر النص التالي على الشاشة: (في أوائل حرب 1914 قطعت الدولة العثمانية القمح عن لبنان بقصد تجويع الأهالي وإضعاف مقاومتهم وكانت تصادر شباب البلاد وتسوقهم إلى المنفى. هذه المرحلة سميت "سفر برلك"). أثارت العبارة، وموضوع الفيلم، غضب السفارة التركية وتدخلت لمنع عرض الفيلم، إلى أن ارتضت بالحل الوسط، أن تعرض لافتة أخرى مفادها أن الأتراك الحاليين ليسوا مسؤولين عن العثمانيين.

وفي العادة يتم بيع حقوق الفيلم إلى العالم قبل الانتهاء من تصويره، خصوصاً إذا كان من بطولة نجوم وإخراج مخرج معروف. وجاءني كثيرون يطلبون شراء حقوق العرض في عدة دول عربية، لكنني رفضت البحث في ذلك قبل عرضه في سوريا ولبنان. وكما توقعت أيضاً، حقق الفيلم نجاحاً كبيراً، غطى قسماً كبيراً من خسارة "بياع الخواتم" فانحسرت الخسارة إلى مئة ألف ليرة. وأعطيت حقوق التوزيع في العالم إلى كمال قعوار وجان خوري مرة أخرى.

شجعني نجاح "سفر برلك" على المضي قدما في إنتاج فيلم ثالث من بطولة النجمة الكبيرة فيروز. وبالفريق الفني نفسه، المخرج

بركات ومدير التصوير كلود روبان وعن سيناريو من تأليف الأخوين رحباني، أنتجت فيلم "بنت الحارس" عام 1968. وتم تحميض الفيلم وطبعه هذه المرة في معامل تكنيكولور في لندن.

وإلى جانب فيروز، نصري شمس الدين ورفيق سبيعي ومعظم الذين شاركوا في "سفر برلك" وانضم إليهم: الياس رزق وليز سركسيان ولم تكن قد انتقلت إلى القاهرة بعد.

لن أخوض في موضوع الفيلم فلقد شاهده ملايين. أذكر ما لم يشاهده الناس: حقق هذا الفيلم ربحاً، وكنت سعيداً لأنني استطعت أن أسعد شركائي في "بياع الخواتم" الذين تحملوا معي الخسارة وأصبحوا يقاسمونني الربح.

ولقد أحببت أغاني هذا الفيلم، كما أحببت أغاني الفيلمين السابقين، وكما أحببت معظم أغاني فيروز والأخوين رحباني. لكن أغنية في فيلم "بنت الحارس" أثارت لديّ ذات يوم شجونا خاصا. كنت مقيما في باريس في مطلع الثمانينات، وتطورت الأمور في لبنان نحو الأسوأ، خصوصا بعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982. كنت في منزلي الباريسي أشاهد نسخة فيديو من الفيلم، وبدأت أستمع إلى واستمتع بأغنية "نسَم علينا الهوا" إلى أن غنت فيروز "فزعانه يا قلبي.. إكبر بهالغربي.. وما تعرفني بلادي"! فكرجت دمعة على خدي.

إنتاج مباشر وغير مباشر

بعد دخولي مجال إنتاج الأفلام في لبنان، انتشرت في الوسط السينمائي مقولة بأن المنتج نادر الأتاسي على استعداد لمساعدة ومشاركة كل راغب في الإنتاج! جراء ذلك تدفق على مكتبي منتجون من شتى الألوان، منهم المحترف ومنهم المتطفل على المهنة. طبعاً استبعدت الأخيرين، وشرحت للباقين أنني لست متفرغا للسينما، وما زلت ناشطا في حقل الهندسة والتعهدات، ميدان عملي الرئيسي، ولذلك فالأفلام التي أنتجها أو أمولها أو أشارك في إنتاجها أنواع. وشرحت لهم الفروق.

ثمة أفلام ساعدت في إنتاجها بالتمويل، لكني أوكلت مهمة الإنتاج فيها إلى تحسين قوادري، ومنها على سبيل المثال: „قطط شارع الحمراء" الذي أنتج عام 1971. وقد عهد تحسين بمسؤولية الإنتاج إلى ابنه أنور، وكان دون العشرين، لكنه نجح في مهمته. قام بتمثيله مجموعة كبيرة من النجوم (ومن الذين صاروا نجوماً) أذكر منهم: مديحة كامل، نوال ابو الفتوح، يوسف شعبان (من مصر) شوقي متى، علي دياب، كريم ابو شقرا (لبنان) محمود جبر، نزار فؤاد، نجاح حفيظ، ناهد حلبي (سوريا) وأخرجه اللبناني سمير الغصيني. وكان هذا أول أفلامه كمخرج بعدما عمل كمساعد في أفلام عدة.

وتدور قصة الفيلم حول مجموعة من الشباب والفتيات المتأثرين بموجة الهيبية السائدة حينذاك والمسيطرة على عقول المراهقين فيندفعون في ملذاتهم مثل تعاطي المخدرات وقيادة الدراجات النارية بتهور وإقامة الحفلات في ملهاهم الخاص على شاطىء البحر وينغمسون في مجونهم حتى أن بعضهم يعتدي على عفاف وهي خطيبة مهندس محافظ، وعندما تصحو الفتاة من هول المصيبة التي ألمت بها تعود إلى رشدها وصوابها وتكتشف الهوة التي تردت بها فتنتحر وعندما تظهر على الملأ تصرفات هذه الجماعة تتم مطاردتها ثم يلقى القبض على أفرادها ويزجون في السجن.

وقد نُفِّذ الفيلم بشكل جيد حتى أن المخرج هنري بركات حين رأى مشهد الهيبيين يرقصون رقصة النار وعلى رأسهم مديحة كامل بجمالها الأخاذ، والنار بضخامتها تلفت الأنظار، قال لي بأن هذا الفيلم يستحق أن يعرض عالمياً. وبالفعل، عرض في لبنان ولقى نجاحاً تجارياً جيداً، وما زالت وزارة الثقافة والمهتمين بشؤون السينما اللبنانية ومهرجاناتها في لبنان يطلبون مني تزويدهم بنسخة من هذا الفيلم لعرضها خلال المهرجانات.

من الأفلام التي شاركت في إنتاجها ويظهر اسمي فيها فيلم „غيتار الحب“ (سنة 1973) وهو من توزيعي. بدأ المشروع المنتج يوسف الحاج ثم باعه للمنتج المصري المعروف جمال الليثي، وأنا توليت

تمويل الجزء الأكبر مع احتفاظي بحق توزيع الفيلم في العالم. م
عدا سوق مصر التي تنازلت عنها لجمال الليثي. أخرج الفيلم محمد
سلمان وكان من بطولة صباح (في أوج نجوميتها) وجورجينا رزق
(وكانت قد انتخبت ملكة جمال الكون في السنة ذاتها) وعازف الغيتار
المصري عمر خورشيد (وكانت شهرته في الذروة). أضف إليهم كيفا
وإبراهيم المرعشلي، شوقي متى، زياد مكوك، ليلى كرم وغيرهم.

قصة الفيلم تدور حول شقيقتين كانتا في مدينة للملاهي برفقة
والدتهما المصرية التي تعيش في لبنان. تاهت الفتاة الصغيرة
وبحثت الأم والشقيقة الكبرى عنها من دون جدوى. ومرت السنون
وأصبحت الفتاة الصغيرة ملكة جمال الكون، ونعمت بالشهرة والمال
والرفاه، ولم ينغص عليها سوى فقدان الشقيقة والأم ولا تملك سوى
صورتهما. الشقيقة الكبرى جاءت من القاهرة لتبحث عن أختها، وفي
بيروت التقت بشاب موسيقي ونشأت علاقة حب بينهما من دون أن
تدري أنه حبيب شقيقتها الصغرى في الوقت نفسه. وعندما تعلم بأن
أختها هي منافستها على قلب الرجل تقرر التضحية من دون البوح
بسرها إلى أختها الصغرى، التي ما إن تعرف الحقيقة حتى تهرع
لتفتش عن أختها، إلى أن تجدها وتتوقف الصورة تاركة للجمهور أن
يقرر من سيختار بطل الفيلم حبيبة له.

ومن ذكريات هذا الفيلم أنني دخلت قبل التصوير في مصالحة بين
المؤلف الشاب آنذاك فارس يواكيم والمخرج محمد سلمان. وكان

صديقين حميمين، إلا أن الخلاف نشأ بسبب تغيير في القصة. جمعتهما في مقهى الدولشه فيته بمحلة الروشة ورضي الإثنان بتحكيمي. كانت القصة الأساسية التي كتبها فارس تقوم عقدتها على صراع بين أم وابنتها على حب الشاب. وفي رأيه أن الصراع أقوى من تنافس بين شقيقتين. نفث محمد سلمان دخان سيجارته في الهواء وقال لي „شو بعمل له؟ صباح ما قبلت تلعب دور أم!". قلت للمؤلف الشاب: „الحق معك. الصراع يكون أقوى والفيلم يصبح أكثر درامية. ولكن للإنتاج ظروفاً أخرى يجب أن نضعها في الحسبان. في الفيلم ثلاثة أسماء مثل الذهب. وسلمان صديقك وأنت تعرفه جيداً. هذا مخرج كوميديات ومنوعات وينجح في هذا اللون. هو ليس بركات أو حسن الإمام".

وصدق حدسي بشأن النجاح التجاري للفيلم. إذ حقق إيرادات كبيرة جداً، وتم عرضه في أربع صالات في بيروت في الوقت نفسه، وخلال فترة العيد، وكانت هذه سابقة لم تشهدها الصالات اللبنانية. وما زال أميل دبغي صاحب سينما „الحمرا" (إحدى أفخم الصالات، والتي عرضت الفيلم) يتباهى بالعدد الكبير لمشاهدي الفيلم، وقد بلغت نسبة امتلاء الصالة رقماً يفاخر به أمام موزعي الافلام.

الفيلم الثالث الذي يشرح طريقة مساهمتي في السينما وكيف تختلف من فيلم إلى آخر، كان فيلم „إمبراطورية غوار" (إنتاج عام 1979).

هذا الفيلم أصلاً كان من إنتاج محمد الرواس (سيريا فيلم) وقد بدأ الاستعداد بالكثير من التكتم وبدون ضجة إعلامية لسبب وعورة الموضوع وإمكانية تحميله تأويلات لا يحملها. كانت القصة من تأليف الأديب زكريا تامر أما السيناريو فمن كتابة محمد مرعي الفروح مع لمسات من المخرج مروان عكاوي والبطل دريد لحام. وكان أول فيلم لدريد من دون نهاد، الذي لم تعد حالته الصحية تسمح له بالعمل. توزعت الأدوار الرئيسية على هاني الروماني وناجي جبر (أبو عنتر) وعمر حجو وسواهم. حاول محمد الرواس قبل البدء في تصوير الفيلم أن يبيعه، إلا أن الذين وعدوه بالشراء أخلوا بالوعد، فأسقط في يده في اليوم الخامس من التصوير بسبب نفاد السيولة المالية لديه.

تدخل مخرج الفيلم مروان عكاوي وطلب من تحسين قوادري أن يقرضه مبلغ 50 ألف ليرة لإكمال الفيلم فصرخ تحسين "بك" وقال إنه لا يملك هذا المبلغ من المال فاقترح عليه أن يطلبه مني. ولما عرض عليّ المشروع وافقت، كمنتج مشارك (إنتاج سيريا فيلم ونادر الأتاسي) وكموزع (الشركة المتحدة للتجارة والسينما).



أول فيلم أخرجه دريد لحام



الملصق الاعلاني لفيلم " التقرير "



الملصق الاعلاني لفيلم " كفرون "

من "الحدود" إلى "كفرون"

في مطلع الثمانينات جمعتني جلسة على فنجان قهوة مع دريد لحام. كلمني مطوّلا عن أفلامه السابقة وكأنه يقوم بكشف حساب أو إعادة تقييم ذاتي. قال إنه سعيد جدا بالأفلام التي قدمها، حتى بالنسبة إلى تلك التي لم يرض عنها تماما أو نسبيا، فمجمل هذه الأفلام - بإيجابياتها وسلبياتها - رسّخ اسمه بين المشاهدين في العالم العربي، لكنه الآن يرغب في تقديم نوع آخر من الأفلام، سينما أخرى يحلم بها من زمان ولم يستطع أن يحققها إما بسبب ظروف الإنتاج وإما بسبب متطلبات السوق. قال: „أصبحت نجما والحمد لله. الآن أستطيع - ويحق لي - أن أقدم ما أريد فعلاً تقديمه". سألته أن يوضح أكثر، فقال يريد أن يقدم فيلما يكون موضوعه مثيراً لاهتمامه واهتمام الناس، وبسرعة أكد قائلا: „ويكون في الوقت نفسه فيلماً كوميدياً. أعرف أن الجمهور ينتظر مني الفكاهة. لكن من الممكن أن يكون الفيلم مضحكاً وذا مغزى أيضاً".

كنت أصغي باهتمام لعدة أسباب، ربما أهمها أنني أكنّ له مودة خاصة وأنني معجب بفنه. وقطعاً للاسترسال في المقدمات طلبت منه أن يدخل رأساً في الموضوع، فلا شك أن لديه شيئاً آخر يريد أن يقوله. سألته: „هل عندك مشروع جديد؟" أجاب: „نعم". وقدم لي ملخص

فيلم (الحدود) وكان هو صاحب الفكرة، كما قدم لي السيناريو الكامل مع الحوار والنص للشاعر والكاتب الساخر محمد الماغوط مع دريد لحام. طلب مني أن أقرأ وأن نتناقش في الاجتماع التالي.

أعجبني النص للغاية، وشخصية البطل التي جسدها في الفيلم دريد لحام. ذلك المواطن الذي فقد جواز سفره وهو ينتقل من بلد إلى بلد، فلم يعد بوسعه دخول البلد الثاني ولا الرجوع إلى البلد الأول، فكتب عليه أن يعيش في المنطقة الحدودية بين البلدين. نقد فكرة الحدود/السدود بين العرب واضح وبنّاء، والمواقف الكوميدية غنية في السيناريو أيضاً. بيد أني لاحظت أن البطل لا يؤدي شخصية غوار الطوشة بل شخصية جديدة تماما. وحين اجتمعنا للمرة الثانية هنأته على المشروع الجديد وأخبرته أنني منتج طبعاً (ونفذت ذلك بالتعاون مع سيريا فيلم)، وانني الموزع (عبر الشركة المتحدة للتجارة والسينما) وسألته عن الشخصية الجديدة فأجاب بأن "غوار الطوشة" مرحلة وانتهت، ووافقته الرأي بأن الجمهور سيتعاطف مع مشكلة المواطن المحبوس عند الحدود وسينسى غوار.

وصلنا إلى البحث في اسم المخرج، وفاجأني وهو يقول "أرشح نفسي"! لكن المفاجأة تبددت سريعاً ووافقت مستنداً إلى إن دريد لحام عمل عدة أفلام مع عدة مخرجين. وهو في الوقت نفسه مخرج مسرحي وتلفزيوني ناجح، وهو إنسان ذكي، فلا داع للخوف من المغامرة.

أسند دور البطولة النسائية إلى رغدة التي تألقت في الأداء، كما أجاد الممثلون الآخرون: هاني الروماني وعمر حجو ورشيد عساف وسواهم. وانتهى التصوير والمونتاج في شهرين في أجواء عمل مريحة سادها المرح وروح التعاون.

نجح فيلم "الحدود" نجاحا غير مسبوق على الصعيدين الفني والتجاري. من حيث المردود المالي، كانت الإيرادات مرتفعة، ومن حيث المكسب الأدبي كان الثناء كثيراً. الجمهور والنقاد، كلهم أعربوا عن إعجابهم بالفيلم. وبعد النجاح الجماهيري حيثما عرض، انتقل الفيلم إلى المهرجانات، وأولها „مهرجان قرطاج" التونسي (عام 1984).

إتصل بي رشيد فرشيو المسؤول عن المهرجان وقال لي: „هل تنصحني بأن أفتتح المهرجان بفيلم (الحدود) علماً بأن العادة جرت على أن يكون الافتتاح بأحد الأفلام التونسية، إلا أن سمعة فيلم (الحدود) تدعوني لأن أستشيرك وأخذ موافقتك". فقلت له „خيراً تفعل بافتتاح المهرجان بفيلم (الحدود) وستدرك أنك أحسنت الاختيار". وهذا ما حدث، وكان استحسان الحضور مدهشاً، الجمهور والنجوم الضيوف على حد سواء. الممثلون المصريون المشاركون في المهرجان، وفي مقدمتهم عادل إمام، صفقوا بحرارة عالية. وتلازم عادل إمام مع دريد لحام حتى أطلق الصحافيون خبراً بأنهما سيعملان معا في

فيلم قادم بعنوان "وطن من السماء" مطابق لروحية فيلم "الحدود".
وصدرت صحف تونس في اليوم التالي وعنوانها الرئيسي „نجاح بلا حدود لفيلم الحدود".

بعد „الحدود": تعاونت مع دريد لحام في فيلم „التقرير" (عام 1986) بالشروط ذاتها. هو البطل والمخرج. معه رغدة بالاشتراك مع: منى واصف، كريستين، عمر حجو، عباس النوري، عصام عبه جي، شاكر بريخان وأحمد رافع. كما كتب القصة والسيناريو والحوار محمد الماغوط. وكان „التقرير" ذا موضوع هام يتناول قضية فلسطين وكيفية تحريرها وقد كتب عنه محمد الماغوط نصاً أورده كما هو لأن كاتبه أقدر على التعبير عنه:

(عزمي بك المستشار الدونكيشوتي في مصلحة التفتيش العليا، موظف نقي الضمير في دائرة لا تفهم هذه اللغة ولا تريدها، وعندما يستقيل أو يقال ... ينصب نفسه مستشاراً على الأمة العربية بأسرها!!

إنه بطل بلا هتافات

رحالة دون خرائط

ومقاتل دون حماية أو سلاح سوى عينيه وأذنيه وقلمه..

يتقصى غربة الموظف عن وظيفته

والمزارع عن حقله

والمعلم عن تلاميذه

والقاضي عن ضميره

والجار عن جاره...

ويهيم عبر الماضي والحاضر والمستقبل ليصل إلى الجذور الحقيقية لغربة الشعب عن وطنه والوطن عن شعبه.

إنه أكثر من موظف عادي في مهمة عادية

إنه طائر بشري في خريف العمر يغني أغنية الربيع على شجرة العرب الجرداء...

فهل تزهر؟؟).

وبعد نجاح فيلم „التقرير" أيضاً، قررت الاستمرار وذلك بفيلم يكون للأطفال فيه دور البطولة، إذ لا يوجد في البلاد العربية فيلم يمثله أطفال أو هو نادر جداً. أنتجت فيلم "كفرون" عام 1990. كتب القصة دريد لحام وتولّى الإخراج أيضا والبطولة. وكان السيناريو والحوار من وضع دريد لحام ورفيق الصبان. تناول الفيلم قضايا الأطفال وعالجها مع خمسة منهم أدهشوا الناس بتمثيلهم. والى الأطفال، قام بأداء الأدوار: مادلين طبر، سامية جزائري، عمر حجو، حسن دكاك، حسام تحسين بك. وعرض الفيلم في مهرجان الطفل

في القاهرة بحضور الأطفال الهمسة وقد اعتلوا المسرح بعد العرض وحيّوا الجماهير المندهشة. وقد حقق فيلم „كفرون" وما زال يحقق أرقاماً هائلة.

هذه الثلاثية من الأفلام التي أخرجها دريد لحام تشكل وحدة. وفعلاً برهن دريد على أنه كان مظلوماً في الأفلام الاولى التي أنتجناها له سابقاً، وهو استطاع في هذه الثلاثية أن يثبت كونه مخرجاً إضافة الى نجاحه كممثل وصاحب أفكار.

من بعد أخرج دريد لحام فيلم „الآباء الصغار" عام 2006 وهو من تأليفه وبطولته. اشترك معه: حنان ترك وسلمي المصري. لم تشأ الظروف أن أكون منتجا لهذا الفيلم. ويقول الآن إنه يحضر فيلماً يطالبه الناس به وهو „وطن في السماء"، لكنه يتكتم على العمل الذي انتقاه ليكون خاتمة لرحلته السينمائية.

في أضواء الإنتاج العالمي

بعد السينما العربية فتحتُ أبواب السينما العالمية. ودائما كان العمل في السينما يجمع بين الاستثمار التجاري وحب الفنون. هي حرفة أخوضها بهواية. وجاءت خطوتي الأولى في اتجاه السينما العالمية في مدينة كان، وبمبادرة من شاب عربي، هو أنور قوادري، ابن صديقي تحسين "بك". وكنت عرفته طفلا ثم فتى يافعا وتشجعت وأسندت إليه إدارة إنتاج فيلم „قطط شارع الحمرا" كما أسلفت القول، وأنا شجعت أباه على إيفاده إلى لندن خريف 1972 لدراسة الإخراج والإنتاج والمونتاج في أكاديمية السينما. وكنت أتوسم فيه الخير وأدعوه كل سنة (من 1976 إلى 1992) لحضور مهرجان كان السينمائي.

ذات صباح عام 1980 كنت جالساً في تيراس فندق المارتينيز (الذي أقيم في جناح فيه طول فترة المهرجان لأكون على مقربة من أهل الوسط السينمائي، برغم أنني أمتلك شقة جميلة في كان) وكنت أحتسي قهوة اكسبريس، كعادتي بعد تناول الفطور. أطل أنور قوادري وفي يده ملف وفي عيونه كلام أدركت أن له علاقة بالملف. ما تصورت أن الملف يضم حيثيات دعوى قضائية فهو ليس بالمحامي، ولا نتائج فحوص طبية فهو ليس بطبيب، ولا خرائط مشروع بناء

فهو ليس مهندساً. إذاً فالملف يضم مشروعا سينمائياً.

صدق حدسي، سوى أن المشروع لم يكن بشأن فيلم عربي، بل الموضوع يتعلق بفيلم عالمي. قال لي إن لديه سيناريو فيلم „حب مع الأبراج" من تأليف تيودور غيتس وهو سيناريست بريطاني مخضرم، تدور أحداثه حول أبراج الزودياك وتأثيرها من ناحية الجانب العاطفي على الإنسان. وروى لي أنور حكاية الفيلم مع تفاصيل بعض مشاهد السيناريو. أعجبتني الفكرة من حيث المبدأ، فسألته عن محتوى الملف، فأجاب أن به الملخص والميزانية ودراسة جدوى وترشيح لبعض العاملين. قلت اتركه لي سأدرسه وأعطيك الجواب. رافقني في مشواري على „الكروازيت" إلى فندق الكارلتون حيث التقيت في التيراس ببعض العرب العاملين في السينما العالمية مثل ماريو قصار وسيلفيو ثابت ومصطفى العقاد.

في الليلة ذاتها وقبل النوم درست الملف ووجدت المشروع معقولاً. وفي اليوم الثاني حضرأنور لمقابلتي فبادرته بالسؤال عن كيفية إنتاج الفيلم في لندن وكانت إجاباته مقنعة. استفسرت عمّن سيكون مدير الانتاج فرشح زميلا يونانيا درس معه في أكاديمية السينما بلندن يدعى بانوس نيكالاو. أعطيته الموافقة على إنتاج هذا الفيلم، فكاد يطير من الفرح! كنت أرغب في دخول مجال الإنتاج العالمي، وكنت أثق في أنور قوادري، فوجدت الفرصة مناسبة للإنطلاق.

أسس أنور شركة إنتاج بريطانية لتقوم بعملية التنفيذ وأعطيته كامل الصلاحيات بإدارتها الفنية والمالية. كنت أتابع التصوير وشؤون الإنتاج معه على الهاتف بشكل مستمر. وحين انتهى المونتاج الأولي للفيلم دعاني إلى العرض الخاص في الاستوديو في لندن ليسمع رأيي. لفت نظره إلى طول المشاهد وطلبت تقصيرها فوافقني. اقترحت أن نتعاقد مع الموسيقار الفرنسي العالمي بيار بيشليه لتلحين الأغنية وتأليف الموسيقى التصويرية للفيلم. وفور عودتي إلى باريس اتصلت به واتفقت معه وأرسلته إلى لندن ليسجل الموسيقى. أما الأدوار الرئيسية فأدّاها مارتن بوروز وثيك ويلسون وجانيت لوف.

إنتهى تنفيذ الفيلم من دون عقبات ومن دون تجاوز للميزانية المرصودة. أسندت توزيعه إلى شركة "أي تي سي" العالمية ITC التي قامت بعرض الفيلم في 50 دار عرض في بريطانيا، ونجح محققاً إيرادات مقبولة. وسعدت لأن ثقتي كانت في محلها ولأن الخطوة الأولى في الإنتاج العالمي كانت موفقة.

"كسـارة الـبـنـدق"

في عام 1981 كنت في لندن، وكان أنور قوادري بعد „الحب مع الأبراج" قد قام بإخراج فيلم روائي قصير لشركة „توين كونتيننتال" البريطانية بعنوان „غرفة الانتظار" يتناول موضوع التفرقة العنصرية بين الأوروبيين والملونين في بريطانيا. دعاني إلى عرض خاص وهنأته وطلبت منه أن يستعد لإنتاج فيلم آخر، وقد يكون بميزانية أكبر.

بعد فترة أرسل لي ملخص فيلم بعنوان „كسارة البندق"، مقتبس من باليه تشايكوفسكي العالمية الشهيرة، لكن بمعالجة حديثة. تدور الأحداث حول هروب نجمة رقص باليه روسية إلى لندن في ذروة الحرب الباردة، ووقوعها في فخ شبكة غير أخلاقية تديرها سيدة مجتمع أنكليزية، تستعمل أكاديمية الرقص واجهة لتغطي أعمالها المشبوهة. راقت لي الفكرة وأخبرته بذلك هاتفياً.

بعد أيام زارني في مكتبي في باريس وكان عندي الناقد السينمائي سمير نصري، الذي كان قد قرأ الملخص وأعجب به هو الآخر. أبلغت أنور قوادري موافقتي على إنتاج هذا الفيلم على أن تنفذه شركته البريطانية التي أنتجت الفيلم الأول. واتفقنا على تكليف كاتب السيناريو ريموند كريستودولو صياغة النص. ثم بدأنا التفكير في

نجمة سينمائية لدور البطولة لضمان توزيع الفيلم عالمياً، حيث أن ميزانيته كانت كبيرة. رشح سمير نصري النجمة الإيطالية جينا لولو بريجيدا وأيّدتُ هذا الترشيح مبدئياً.

بدأ السيناريست الكتابة وقام أنور قوادري باتصالات مع شركات توزيع الأفلام ومع وكلاء نجوم السينما. حظي المشروع بموافقة مبدئية من شركة „رانك للتوزيع ودور العرض" وهي من الشركات العملاقة في بريطانيا، لكن مديرها تحفظ على اسم جينا لولو بريجيدا لأنها ليست بريطانية ولا شعبية كبيرة لها آنذاك في إنكلترا، وأصرّ على وجود نجمة إنكليزية لكي يتبنى توزيع الفيلم داخل بريطانيا وعرضه في صالاتهم ثم لتوزيعه في جميع أنحاء العالم. وبعد مداولة أخرى مع أنور قوادري، اقترحت النجمة البريطانية العالمية جوان كولينز فوافق فوراً. طلبت منه الاتصال بوكيل جوان كولينز ومفاوضتها. كان كاتب السيناريو قد انتهى من كتابة السيناريو المبدئي، فأرسلناه إلى جوان كولينز، التي قرأته خلال يومين أثناء وجودها في لندن (كانت آنذاك تقيم معظم الأحيان في هوليوود). أبدت جوان استعدادها لتلعب دور مدام كارير. أبلغنا شركة „رانك" بذلك فرحبوا باسم النجمة. وبدأنا تجهيز عقد توزيع هذا الفيلم قبل البدأ بالتصوير. قمت بزيارة لندن لوضع اللمسات النهائية على إنتاج الفيلم، وقدمت اقتراحات حول تعديل السيناريو. ثم جاء التفكير في الممثلة التي ستلعب دور راقصة الباليه الروسية أمام النجمة جوان

كولينز. بعد يومين، زارني أنور في فندق „إن أون ذي بارك" وأخبرني أنه وجد الممثلة المناسبة. قال إنه شاهد المسرحية الاستعراضية „ قطط" Cats ولفتت نظره ممثلة وراقصة ثانوية بالمسرحية تدعى فينولا هيوز Finola Hughes . أعجبته طريقة أدائها التلقائية ورقصها الجميل. ثم أخرج من الملف الذي يحمله مجموعة صور لهذه الممثلة. وجدت أنها مناسبة فشجعته على الاتفاق معها.

بدأ تصوير الفيلم، وكان أنور قوادري يعرف طبعي جيدا ويدرك أنني أسخى في الإنتاج وأوفرّ كل الإمكانيات للمخرج ليقدم الفيلم بأرقى مستوى، لكنني أكره هدر المال في غير مكانه لأنه لا يظهر على الشاشة! كنت سعيداً للغايةً، لدى صرف مبالغ طائلة على مشاهد الحفلة التنكرية في نهاية الفيلم، لأنها لصالح العمل. ثم انتهى التصوير والمونتاج وبدأنا الاستعداد لإطلاق الفيلم في صالات العرض. بالنسبة لي، تعتبر الدعاية فنا قائما بحد ذاته، لأن طريقة تقديم الفيلم للجمهور لا تقل أهمية عن إنتاجه. لذلك كانت حفلة تقديم فيلم „كسارة البندق" في فندق المارتينيز خلال مهرجان كان السينمائي لعام 1982، وبحضور نجمته جوان كولينز، مع بقية أبطال الفيلم ومخرجه، حديث المهرجان ذلك العام.

تبقى الإشارة إلى أن هذا الفيلم جعل من فينولا هيوز نجمة سينمائية من الطراز الأول، فأسند إليها سيلفستر ستالون بطولة فيلم „البقاء حيا" Staying alive أمام جون ترافولتا.



كما ذكرت سابقا، دفعني التردد على أميركا لزيارة إبني حماد حين كان يدرس الهندسة هناك، إلى التفكير في أعمال. ومن ضمن الأعمال إنتاج الأفلام وتوزيعها. وقد بدأتها مع المخرج والمنتج سيلفيو ثابت. وهو صديق قديم عزيز كنت أجتمع وإياه مرات عديدة سواء في لبنان أو في فرنسا وفي مهرجانات السينما العالمية.

حين علم بوجودي في أميركا زارني وأخبرني أن لديه مشروع إنتاج فيلم سينمائي في هوليوود وهو يرغب بمشاركتي في هذا المشروع. ذكر لي بأن سيناريو الفيلم كتبه المخرج القدير دون كوسكاريللي Don Coscarelli وقال أيضاً بأنه اتفق مع ماريو قصار ليعملا معا في هذا الإنتاج. رحبت بالفكرة وتواعدنا على اللقاء حول مائدة غداء في بيت جوزيف عبده خوري الذي كان مديراً لبنك البحر المتوسط. وافق جوزيف خوري على تمويل المشروع بشروط لم تعجبني، لذلك قررت إنتاج الفيلم مع سيلفيو ثابت من دون مشاركة أحد معنا.

أسسنا شركة في أميركا غايتها إنتاج الافلام وانضم إلينا نزار العظم المقيم في أميركا آنذاك. كانت باكورة الإنتاج فيلمين عاديين من النوع الخفيف، لكن الاستعداد الأكبر كان لإنتاج لفيلم "سيد

الوحوش""Beast-Master من إخراج دون كوسكاريللي. وهو مخرج أميركي من أصل إيطالي اشتهر للغاية حين أخرج أول أفلامه عام Jim, the world's greatest 1976 وكان في السابعة عشرة من عمره! أصغر مخرج في تاريخ السينما الأميركية. وبدأ العمل على إنتاج الفيلم، وزرت المخرج الموهوب في مكتبه فوجدته قد رسم جميع أقسام الفيلم كما يتخيلها أو ينوي إخراجها على لوحات، ما جعلني أطمئن لعمله. وكانت ميزانية الفيلم التي وضعت تقدر بـ 4 ملايين دولار إلا أن التكاليف الفعلية تجاوزت 6 ملايين دولار ارتضيت أن اقترضها لإتمام هذا المشروع، وكان هذا المبلغ - آنذاك - يعتبر ميزانية كبيرة تخصص لأضخم الأفلام. وكان الفيلم من بطولة مارك سينغر وتانيا روبرتس.

وذات يوم أثناء التصوير إتصل بي سيلفيو ثابت وقال لي بأنه يرغب في تغيير المخرج لاختلافه معه وسيبدله بمخرج آخر ذي سمعة كبيرة. أجبته فوراً بأنني شخصياً "أفضل تغييرك أنت على أن أغير المخرج لإيماني بمقدرته". وأكملنا على هذا الأساس وقد عاد سيلفيو ثابت للإعتذار عن تصرفه بعدما شاهد العمل وشكرني على تمسكي بقراري.

حين ظهر فيلم "Beast-Master" عام 1982 كان ماريو قصار قد أنتج فيلمه "رامبو" وقد رفضته شركات التوزيع في البداية (ثم أطلق

بنجاح لاحقاً) أما فيلمنا فقد تم عرضه في 1000 صالة في أنحاء أميركا. وكانت هذه المرة الأولى التي يعرض فيها فيلم في هذا العدد من الصالات دفعة واحدة. وقد نجح الفيلم وحصد إيرادات جيدة.

ليس بعد لندن وهوليوود، ولا قبل، بل في الوقت ذاته بدأت من باريس مهمة إنتاج الأفلام على الصعيد العالمي. في فرنسا أسست شركة إنتاج وتوزيع أفلام سميتها "فيلماكس". وكما في كل شركة أسستها، عهدت بإدارتها إلى شخص ذي خبرة يمكنني الاعتماد عليه. شاركت غبريال بستاني، وهو لبناني يحمل الجنسية الفرنسية، ويتمتع بخبرة واسعة في صناعة السينما، إضافة إلى كونه كاتب سيناريو ممتازاً. وقد أنتجت هذه الشركة بضعة أفلام أولها "يوم تعس" Un dimanche de flic من إخراج ميشيل فيانيه وبطولة جان روشفور وفيكتور لانوه والممثلة الألمانية بربارة سوكوفا التي كانت قد حصلت في العام نفسه (1982) على جائزة أفضل ممثلة في مهرجان برلين السينمائي. وقد شاركني في إنتاج هذا الفيلم غبريال بستاني وبشار نصري.

وفي عام 1984 أنتجت "فيلماكس" فيلما للتلفزيون أخرجه الفرنسي المخضرم القدير فيليب دو بروكا بعنوان "لويزيانا" Louisiana وكان من بطولة أندريا فيرول ومارغو كيدر.

بيد أن أهم أفلام تلك المرحلة ذلك الذي أنتجناه عام 1984 وحمل

عنوان "دم الآخرين" Le sang des autres وقد ضم ثلاثة أسماء كبيرة المؤلفة والبطلة والمخرج. كان الفيلم مقتبسا عن رواية الأديبة الفرنسية الكبيرة سيمون دو بوفوار، وهو أول فيلم عن إحدى رواياتها. أما البطلة فكانت النجمة الشهيرة جودي فوستر. وأما المخرج فكان كلود شابرول أحد أعمدة السينما الفرنسية الحديثة وأحد مبدعي "الموجة الجديدة" مع فرنسوا تروفو وجان لوك غودار وآلان رينيه. كان هذا الفيلم إنتاجا فرنسيا ـ أميركيا ـ كنديا مشتركا. ومثل الجانب الفرنسي شركتنا "فيلماكس" بالتعاون مع القناة التلفزيونية الفرنسية الثانية A2. من الناحية الفنية كان هذا الفيلم رفيع المستوى، بيد أن إيراداته لم ترقَ إلى هذا المستوى.



مسلسل "جبران"

راودني موضوع إنتاج فيلم حول "جبران خليل جبران" طويلاً وظل يشغل بالي. كنت قد تابعت سيرة هذا الرجل الفذ وما كتب عنه بقدر المستطاع، وقررت بعد حضوري عرض مسرحية كتبها غبريال بستاني عن جبران وأعجبتني كثيراً، أن أنتج فيلماً عن حياة هذا الأديب الكبير. كلفت بستاني ذاته بكتابة السيناريو وقدمناه إلى التلفزيون الفرنسي/ القناة الثانية A2 أعجبوا به إلا أن الميزانية التي وفروها لهذا الإنتاج لم تكن تمكننا من إنتاج المسلسل بالمستوى الرفيع الذي ننشده.

ولكي لا أتراجع عن الإنتاج، قررت تحويل المشروع إلى مسلسل عربي، وليكن خارجاً عن المألوف. وقد رصدت له ميزانية ضخمة وقررت أن أنتجه بأفضل العناصر. استدعيت الأديب وكاتب السيناريو نهاد سيريس من حلب إلى حمص. وهو كاتب قدير قدّم للتلفزيون عدة أعمال ناجحة. أعطيته نسخة عن مسرحية غبريال بستاني وبعض الكتب التي كنت أملكها عن جبران وطلبت منه الاطلاع عليها وإفادتي عما إذا كان بإمكانه كتابة سيناريو المسلسل التلفزيوني. أخذ المسرحية والكتب وطلب مهلة لدراسة الموضوع والإجابة، وبعد أسبوع أخبرني عن استعداده لكتابة السيناريو طالباً مدة شهرين لإنجازه. وعلمت

فيما بعد أنه زار لبنان وتفقد الأماكن التي عاش فيها جبران.

بعد الكاتب استدعيت المخرج فردوس الأتاسي (مخرج العديد من المسلسلات التلفزيونية الناجحة) وأخبرته أنني أثق في خبرته ويعجبني أسلوبه في الإخراج، وأوكلت إليه إخراج المسلسل بعد الاطلاع على الوثائق وما كتبه الغير. وخرج ليعود بعد أسبوع ويبلغني بأنه جاهز، بل ومتحمس لإخراج هذا المسلسل. قال لي: "أنت منتج مثقف ذو خبرة كبيرة وهمّك الثقافي أكبر من همك التجاري المادي، وهذا يشجعني على التعاون معك" فقلت له بالحرف الواحد: "أريد عملاً مهماً ذا قيمة درامية فكرية كبيرة ولا يهمني كم سيكلف هذا المسلسل".

ثم اخترت رياض محفوظ (صاحب "المركز الدولي للإنتاج" الذي أنتج سابقاً عدة أعمال تلفزيونية أحداها بالشراكة معي) وسلمته إدارة الانتاج. وانطلقت ورشة العمل لاختيار أماكن التصوير وانتقاء الممثلين.

جرى توزيع الأدوار على توليفة متجانسة من الممثلين اللبنانيين والسوريين: سوزان نجم الدين، رفعت طربيه، غسان مسعود، جهاد سعد، شادي حداد، أحمد الزين، سلمى المصري، رلى حمادة، ديمة قندلفت، وآخرون. ثم اختار المخرج الطاقم الفني: سمير سمارة مدير التصوير الخبير، الفنان لبيب رسلان للإهتمام بالجانب المكاني

والوثائقي واجتمع هؤلاء بالكاتب نهاد سيريس للنقاش حول المشاهد والشخصيات. ثم سافر فردوس الأتاسي مع سمير سمارة ولبيب رسلان إلى لبنان لمعاينة أماكن الأحداث في بشرّي (مسقط رأس جبران) ووادي قاديشا (مركز إلهامه ومكانه المفضل) وبيروت (مدرسة الحكمة التي درس فيها) ومدرسة مي زيادة في عينطوره، ومتحف جبران والتقطوا مئات الصور.

لكن الصعوبة تمثلت في إيجاد قرية مناسبة للتصوير تشبه بشرّي في أواخر القرن التاسع عشر. ذلك أن بشري الحالية تغيرت وظهرت فيها المعالم الحديثة، والمكان الوحيد الذي بقي على حاله هو منزل جبران خليل جبران. والحال نفسه بالنسبة إلى بقية الأماكن القديمة التي تغير الكثير من معالمها. استطلع لبيب رسلان أماكن كثيرة، وفي جميع أرجاء سورية حيث الطبيعة امتداد للطبيعة اللبنانية، وتوصل إلى قرية قرب مدينة الدريكيش لا تزال كما هي منذ القرن الماضي فيها طرق ترابية والمنازل حجرية قرميدية والطبيعة مشابهة بل متطابقة مع طبيعة بشري. وبمقارنة المئات من الوثائق واللوحات تم اختيار متحف حماه لتصويره كمتصرفية جبل لبنان، وخاناً أثرياً قرب اللاذقية ليكون بديل السجن، وفي الاستديو بدمشق في المدينة السينمائية صمم ديكور منزل جبران في نيويورك وشوارع بوسطن ومنزل في بوسطن. وكان مبنى بطريركية الروم الارثوذكس مشابهاً لمدرسة الحكمة وكان دير آخر قرب مدينة النبك مطابقاً لمدرسة

عينطوره. أما الملابس فقد صممتها الفنانة المبدعة فيكتوريا طنجي ووفقت في الملابس المناسبة لتلك الحقبة وللشخصيات.

عندما اكتمل التجهيز بدأ التنفيذ. وعندما انتهى التنفيذ عرض المسلسل عام 2007 في عدة محطات تلفزيونية واستقبله الجمهور بحفاوة. وحمدت الله على أن رهاني نجح وأن ثقتي في المخرج فردوس الأتاسي وكل العاملين في هذا المسلسل كانت في محلها.

المهندس نادر الاتاسي
يقدم

دريد لحام
ميريام فارس
جورج خباز
أنطوان كرباج
إيلي شويري
حسام تحسين بيك
باسل خياط
ليلى أسطفان

سيلينا
Silina

عن مسرحية "هالة والملك" للأخوين رحباني

سيناريو وحوار الأستاذ منصور الرحباني بمشاركة غدي الرحباني
موسيقى وألحان الأخوين رحباني

إخراج
حاتم علي

مهندس الديكور والملابس: غازي قهوجي مدير التصوير: محمد مغراوي
التوزيع الموسيقي وتسجيل الموسيقى: رعد خلف مونتاج: رؤوف ظاظا المنتج المنفذ: رياض محفوظ

PRIME

فيلم "سيلينا"

بتاريخ 10/1/1981 تعاقدت مع الأخوين رحباني على تحويل مسرحية "هالة والملك" إلى فيلم سينمائي ودفعت لهما قيمة العقد البالغة 200 ألف ليرة لبنانية. كانت غايتي الأساسية إعادة اللحمة بين الرحابنة وفيروز بعد خلاف نشأ وفرّق بينهم. وعندما نعلم أن إنتاج الفيلم السينمائي بأكمله في لبنان كان يكلف حوالي 150 ألف ليرة وأن فيلما رفيع المستوى مثل "بنت الحارس" كلفني 250 ألف ليرة، ندرك أهمية المبلغ الذي دفعته للأخوين رحباني ناهيك عما سيزيد، أي تكاليف إنتاج الفيلم.

لم تنجح محاولاتي لجمع الرحابنة وفيروز وبقي الفيلم معلقاً حتى وفاة عاصي، بسبب تضارب الآراء حول اختيار البطلة بين عاصي ومنصور. ولم أكن معهم في تفكيرهم، إذ كانت غايتي الأساسية عودة فيروز للرحابنة والقيام بتمثيل العمل. وبعد سنوات حاولت إقناع منصور بكتابة السيناريو لتحويل المسرحية إلى فيلم بالتعاون بينه وبين فيروز، وجرت محاولات عديدة لم تتكلل بالنجاح أيضاً، وكانت المناقشات تدور حول من يمتلك الكلمة الفصل. ومرت الأيام وكل يفكر حسب مصلحته وأنا أنتظر.

أخيراً توصلت إلى إقناع منصور بكتابة السيناريو واتفقت وإياه

على مبلغ 100 ألف دولار. وطال الانتظار، إلى أن أقامت "موركس دور" حفلة شارك فيها دريد لحام وجورج خباز، وجرى فيها حوار كوميدي بين الإثنين واستوقفتني جملة قالها دريد لحام في معرض حواره مع جورج خباز حين قال: "من الأسهل أن نتحف الناس بأن نقدم لهم فيلماً معاً، فأنت خباز وأنا لحام ويكون إسم الفيلم لحم بعجين!". تلقفت الفكرة وفي اليوم التالي إلتقيت بدريد وعرضت عليه القيام بفيلم يضمه مع جورج خباز ونقلت الفكرة إلى منصور رحباني لكتابة سيناريو "سيلينا" متضمناً هذين الممثلين وبدأ العمل على فكرة "سيلينا".

وبعد طول انتظار إتصل بي منصور وقال إن السيناريو صار جاهزاً، فأرسلت له رصيد حسابه وأرسل لي نسخة السيناريو. كان من المفروض أن يرشح لي أسماء الممثلين لبقية الأدوار وبشكل خاص البطلة التي ستقوم بدور فيروز، لكنه أرسل لي رسالة شفوية نقلها لي ابنه غدي يبلغني فيها بأن أضع باسمه في البنك 4 ملايين دولار وهو يريحني من هذه العملية ويتولى إنتاج الفيلم. كان جوابي "أنا أمارس إنتاج الأفلام منذ أكثر من 20 سنة وأرغب في الاشتراك في كل تفاصيل الإنتاج إشباعاً لهوايتي لا أن أضع 4 ملايين دولار وأستلم علب الفيلم! ففي الموضوع هناك ذوقي الخاص الذي أريد اظهاره على الشاشة لذا دعنا نتفق أولاً على اختيار البطلة". عندئذ بدأ البحث جدياً عن مرشحة مناسبة.

وذات يوم اجتمعت في فندق الكومودور في بيروت بالسيد أشرف مروان وقد أظهر لي رغبته في مشاركتي في الفيلم وحدثني عن فتاة يعتقد بأنها تملك المواصفات التي تخولها القيام بدور هالة وسيدعوها للاجتماع بي. كانت تلك الفتاة هي ميريام فارس.

ولَد إجتماعي الأول مع ميريام إنطباعاً حسناً فهي فتاة ذكية تعرف ماذا تريد وليست مغرورة ولم يكن لديها أي شروط، معتبرة أن هذه التجربة مدرسة لها تستغلها لتزداد خبرة. ورأيت فيها الثقة بالنفس وملامح الذكاء والوجه المعبر عدا عن التضحية في سبيل النجاح وليس اللهاث وراء المادة. كما وجدت لديها خامة صوتية لابد أن تشحذ ولذا كانت تقابل أساتذة في الموسيقى يومياً وتسمع آراءهم وتحاول الإستفادة من كل ما يقال، وحفظت المسرحية كاملة عن ظهر قلب مما سهل العمل كثيراً أثناء التصوير.

بعد أن تحققت من صلاحية ميريام فارس لدور البطولة في "سيلينا" بدأت البحث جدياً عن بقية العناصر وفي الدرجة الأولى المخرج حاتم علي، الذي كان قد أنجز مسلسل "الملك فاروق" ونجح فيه نجاحاً لافتاً. أرسلت له سيناريو الفيلم (وكان يخرج مسلسلا تاريخيا في المغرب). إتصل بي في اليوم التالي وقال: "قرأت السيناريو الذي أرسلته ولم أستطع النوم قبل إنهائه. أهنئك على هذا المشروع وأنا على استعداد لإخراج الفيلم". لم يكن له أي شروط مادية وترك هذا الأمر لما أقترحه.

وأطلقنا عملية الإنتاج فتسلم إدارتها رياض محفوظ وتعاقدنا مع فرقة إنانا للرقص الشعبي بكامل عناصرها لتكون في خدمة العمل أثناء التصوير إضافة إلى قيامها بالمشاهد الراقصة التي يتضمنها الفيلم. شاركنا دريد في اختيار بعض العناصر، وتم التصوير في قرية "الفارس الذهبي" التي أقام فيها مهندس الديكور ومصمم الملابس غازي قهوجي القرية المتخيلة لمملكة سيلينا. وحددنا مدة شهرين للانتهاء من التصوير إذ أن تكاليف القرية كانت باهظة جداً. ولكن كعادتي حين البدء بمشروع ما، لا بد أن أوفيه حقه مهما غلا الثمن ومن دون تردد. وانتهى التصوير حسب الموعد المحدد وكانت تكلفته أكثر من توقعاتي.

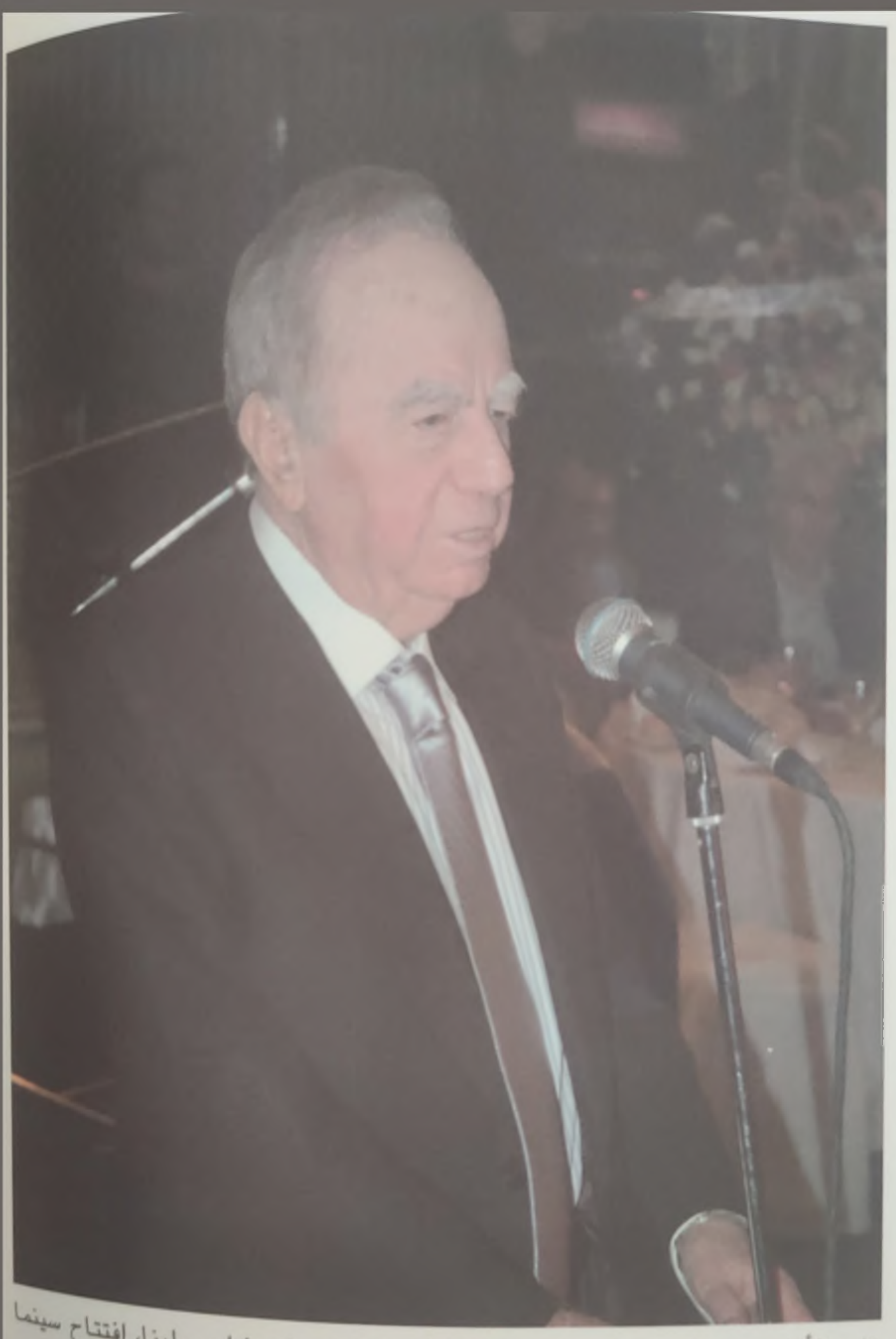
وفي اثناء تصوير الفيلم نقلوا إلى منصور الرحباني أننا أحدثنا تغييرات في السيناريو وحذفنا أغنيات انتقاها هو للفيلم وبدلنا بأشياء أشياء أخرى، وكان لذلك صدىً سيئاً عنده فأرسل يعاتبني على إحداث هذه التغييرات وفقاً للرواية التي سمعها من بعض الممثلين. وبالطبع كان الخبر مدسوساً وغير صحيح وعكّر جو العلاقات بيننا. بيد أني أكدت له عدم صحة ما وصله من أخبار ولسوف يتحقق من ذلك عند مشاهدته الفيلم. وتبين له بعد ذلك عدم صحة الشائعات وأن ما جرى من تعديلات كان طفيفاً ويدخل في مصلحة الفيلم ولا يستحق أن يعطيه هذه الأهمية.

تم العرض الأول لفيلم "سيلينا" عام 2009 بنجاح كبير، وافتتحنا به سينما سيتي في دمشق، وكانت ميريام فارس موضع إعجاب الذين شاهدوها، إذ نجحت تماماً في أداء دور هالة. وأنا احتفظت بهذا الفيلم إلى جانب ثلاثية فيروز "بياع الخواتم - سفر برلك - بنت الحارس" وثلاثية دريد لحام "الحدود - التقرير - كفرون" كأعمال أفتخر بها، وهي ما زالت ملك لي فيما بعت حقوق توزيع بقية الأفلام التي أنتجتها أو شاركت في إنتاجها إلى موزعين آخرين. وبكلمة إنصاف أقول إني لست نادماً على إنتاج تلك الأفلام، إذ هي كانت مصدر سعادتي عند تحضيرها ولدى تنفيذها وبعد عرضها وتوزيعها.





الدكتورة نجاح العطار تقطع الشريط في افتتاح سينما سيتي



نادر الأتاسي بعد انجازه للمشاريع الثلاثة (مسلسل جبران، فيلم سيلينا، افتتاح سينما سيتي) يعلن توقفه عن مزاولة الإنتاج.

عائلة الأتاسي من اليمين: فريز، نادر وعقيلته نهى، خلوصي، خلدون



افتتاح سينما سيتي



ع الصديق عبد المنعم سعد



نادر الأتاسي وعقيلته نهى كبارة في اليوبيل الذهبي لزواجهما

من اليمين: تحسين قوادري، سمير صبري، رغدة، دريد لحام ونادر الأتاسي

افتتاح سينما سيتي


29TH CAIRO INTERNATIONAL
FILM FESTIVAL


29




29



الجمهورية العربية السورية
وزارة الثقافة

مهرجان دمشق السينمائي الدولي الثالث عشر

دمشق تحتضن العالم

٦-١٢ كانون الأول ٢٠٠٣

شهادة تقدير / المنتج الكبير نادر أتاسي

عن مجمل عطاءاته الفنية

وزير الثقافة
رئيس اللجنة التنظيمية العليا للمهرجان
الدكتور محمود السيد

... المؤسسة العامة للسينما
... اللجنة التنظيمية العليا للمهرجان
مدير المهرجان



ملحق (١)

من سينما دمشق إلى سينما سيتي

عندما نقترب اليوم من واجهة سينما ستي الزجاجية المستديرة. ثم نمرّ عبرها الى صالة المدخل، يغمرنا شعور بالاطمئنان مماثل لاحساسنا بدخول بيوتنا. نجلس الى طاولة صغيرة ننتظر قدوم صديق، نطلب فنجان قهوة، وننظر الى الغرانيت الاسود والرملي على الارض فنشعر بالرضا لاناقة التصميم وحسن التنفيذ. كل ذلك بأياد وطنية.

ولكن يغيب عن بالنا مقدار الجهد المبذول للوصول الى هكذا نتيجة، ومدى التصميم الذي لايشوبه شك في مخيلة نادر الأتاسي لانتاج مساحة تلاقي للدمشقيين ترتقي بحداثتها وتصميم مكوناتها الى مستوى من الخصوصية غير مسبوقة في المشاريع التجارية.

نعبر بعدها الصالة المستديرة بخطوطها العنكبوتية ونتوجة لشراء تذكرتين. نهَم بالصعود الى الصالة الاولى فتلفت انتباهنا الواجهة المتغيرة الالوان في عمق المستوى الارضي، فنقوم بحجز طاولة عشاء لشخصين بعد مشاهدة الفيلم. في صالة العرض يغمرنا شعور بالراحة في تلك المقاعد الوثيرة ودرجة حرارة الهواء المثالية ما يوفر

انا متعة لمتابعة أحداث الفيلم، كما أن جودة الصورة وقوة الصوت وصفاءه تضاعف هذه المتعة. ذلك طبيعي كون إنشاء الصالات تمَ وفق أحدث المعايير التقنية المعروفة اليوم في العالم.

بعد العرض نعود أدراجنا الى طاولتنا المحجوزة في "ساكي". المطعم ممتلىء والجميع يتحدث أو ينصت للموسيقى الخلفية، ومع ذلك فلا أثر لضجيج أو صدى، إذ ان دراسة ارتدادات الصوت تمت وعولجت كما في صالتي العرض.

نأخذ المصعد بعد انتهاء العشاء الى الطابق الاول لملاقاة بعض الاصدقاء في الصالون الجديد. نجد أحدهم ينظر الى شاشة حاسوبه مستخدماً الانترنت، بينما يتسامر الآخرون فيما بينهم، نتفق جميعاً على اللقاء مجدداً الأسبوع المقبل لحضور افتتاح الفيلم الجديد وتمضية السهرة في أرجاء سينما سيتي.

إن تلك الأمسية بتلاقيها الاجتماعي هي مثال للمفهوم الذي حدد إطار برنامج التصميم المعماري الداخلي لتحويل سينما دمشق الى سينما سيتي. هذا المفهوم يقوم على أساس خلق مساحات متنوعة منفتحة بعضها على البعض ومتصلة بمساحات التجول الوسطية من ممرات وأدراج. ففي أي نقطة من الوسط تستطيع رؤية الاجزاء الأخرى، فيضفي هذا الواقع شعوراً بكبر المساحة المشتركة وتنوعها وسهولة الحركة في أرجائها. وبهدف تحقيق هذا المفهوم بحسب المواصفات

السابقة، تمَ وضع التصاميم الهندسية التي لحظت انشاء صالتي عرض بسعة ثلاثماية متفرج للأولى ومائتين للثانية، ثم توزعت الوظائف الاخرى والخدمات على كامل الطابق الارضي والأول، حول مساحة وسطية مشتركة ستصبح فيما بعد ممر العبور الحتمي ومنتدى التواصل الاجتماعي في بيئة داخلية مريحة بألوانها، أنيقة بخطوطها.

ثم بدأنا بوضع الدراسات الفنية اللازمة لانشاء المرافق الجديدة، وتأمين مسارات أنظمة التكييف والكهرباء والصرف الصحي، وتمديد الأنظمة الالكترونية والرقمية المتعددة التي تزخر بها سينما سيتي مثل أنظمة الصوت والصورة والمعلوماتية والمحاسبة، وبرامج التحكم بمجموعات التكييف والانارة. وكلها تعتبر عن حق المكونات الضرورية للارتقاء بسينما سيتي الى مستوى الحداثة والعملانية الذي نطمح الى تحقيقه. إلا أننا واجهنا صعوبة كبيرة في التنفيذ لأن الواقع الهندسي لسينما دمشق المصمم والمنفذ في الاربعينيات من القرن الماضي تغلب عليه ضخامة الحجم البيتوني وقلة المعابر والمنافذ الحرة. (تلك كانت طبيعة الانشاءات الهندسية آنذاك) فكان علينا أحياناً أن نعيد التصاميم بحثاً عن مسار جديد يسمح بمرور قناة الهواء المكيف ووصولها الى المساحات المراد تكييفها. ومع انتهاء مرحلة التمديدات الهندسية الاساسية، وهي المرحلة الاصعب، بدأنا أعمال الإكساء وإكمال الديكورات الداخلية، وقد نفذها الحرفيون

بدقة متناهية. ثم تم تجهيز غرف العرض السينمائي بآلات العرض الرقمية الحديثة والثلاثية الأبعاد، والمطابخ بتجهيزات متكاملة لحفظ وتبريد وتحضير مختلف أنواع الأطعمة والمشروبات، حيث يقوم الاختصاصيون بتحضير أطباق اللحوم والأسماك والخضار والحلويات بمهارت تنافس المهارات العالمية المتخصصة في هذا المضمار.

وبدأت سينما سيتي تلبس ثوبها النهائي الذي نعرفه اليوم مع انتهاء التجهيزات والبدء بتوريد المفروشات التي صممت بصورة حصرية لها. فوضعت في الأمكنة المخصصة لها، وتناثرت تنسيقات الزهور في المدخل والساحة الداخلية. بذلك تم التحول الكبير من سينما دمشق الى سينما سيتي وتم الافتتاح الكبير الثاني في تاريخها في 16 نيسان 2009، بالعرض الاول لفيلم "سيلينا" المقتبس عن رائعة الاخوين رحباني "هالة والملك". كانت الأمسية تاريخية بامتياز بوجود جمع غفير من المدعوين ورجال الصحافة وامتدت حتى ساعة متأخرة من الليل. سينما دمشق كانت لها لياليها البيضاء جمعت فيها نخبة المجتمع الدمشقي حول نخبة نجوم العرب، وسينما سيتي كانت لها ليلتها البيضاء الاولى في سجل الالف ليلة وليلة، وقد جمعت فيها نخبة المجتمع الدمشقي والعربي، ومازالت تتكرر يوماً بعد يوم بمعطيات جديدة ووجوه جديدة.

المهندس نبيل قمورية

ملحق (٢)

شركات التعهدات

في عام 1945 قام المهندس نادر الاتاسي بتأسيس شركة تعهدات هندسية ماتزال حتى اليوم تنفذ أهم المشاريع العمرانية والسياحية والصناعية في سوريا. وقد مرت هذه الشركة بعدة مراحل مميزة يمكن اختصارها كما يلي :

×× من عام 1947 إلى 1962، تنفيذ عدة مشاريع، أهمها:

معمل النسيج في حمص. (1947)

تمديد خط النفط في الجولان (1949)

مبنى البريد والبرق والهاتف في حلب (1950)

معمل السكر في حمص (1949)

تنقية ونقل مياه الفرات الى حلب (1950)

العديد من الاجنحة في مدينة معرض دمشق الدولي (1964-1955)

مبنى الجمارك العامة في دمشق (1956)

مستودعات ميناء اللاذقية (1956)

مبنى الايتام في دمشق (1957)

مبنى البريد والبرق والهاتف في دمشق (1957)

معمل الزجاج في دمشق (1958)

مستودعات الشعير في الصحارى (1959)

معمل السكر في دمشق (1960)

المدرسة الفنية في دمشق (1962)

العديد من المدارس في دمشق (1962-1959)

خلال هذه الفترة وإلى جانب متابعة تنفيذ المشاريع في سوريا قام المهندس نادر الاتاسي مع عدد من الشركاء الاخرين بتأسيس شركة تعهدات تدعى اوريانكو ORIENCO لتقوم بتنفيذ المشاريع الهندسية في العراق . واهم المشاريع التي قامت بتنفيذها:

معمل السكر في الموصل (1958)

معمل الغزل والنسيج في الحلة (1964)

عدة محطات تنقية مياه في مختلف انحاء العراق (1960-1955)

ومن الجدير بالذكر ان المرحوم المهندس خلدون الاتاسي وبعد تخرجه من جامعة حلب في عام 1954 انتقل الى العراق للعمل في شركة "ORIENCO" وشارك في تنفيذ المشاريع السالفة الذكر.

ولدى عودته الى دمشق في العام 1958 أصبح المهندس خلدون الاتاسي مسؤولاً عن أعمال التعهدات في سوريا وتأسست حينها شركة " المهندسان نادر و خلدون الاتاسي " والتي تعتبر اليوم من أكبر شركات التعهدات الخاصة في سوريا والتي تقوم بتنفيذ أهم المشاريع الهندسية بجميع أنواعها كمحطات توليد الطاقة الكهربائية والمعامل والفنادق والمشافي والمباني الإدارية والطرق والجسور وشبكات الصرف والري....الخ

ومن المفيد ذكره أنه في عام 1972 اعتبرت الشركة من قبل البنك الدولي أن بمقدورها تنفيذ المشاريع الممولة من قبله في سوريا.

وفي عام 1993 تأسست "شركة نادر وخلدون اتاسي وشركاهم للمقاولات والاستثمار " ناتاسيكو " والتي تعتبر استمراراً لشركة " المهندسان نادر وخلدون الاتاسي " مع توسيع دائرة الشركاء لتشمل المهندس فريز الاتاسي وأبناء المهندسين نادر وخلدون.

ونورد فيما يلي لائحة بأهم المشاريع المنفذه في في سوريا اعتباراً من عام 1964 :

معمل الغزل والنسيج في دمشق: وهو من اوائل المشاريع في سوريا التي استعملت فيها الجسور المسبقة الصنع من البيتون المسبق الاجهاد (1964)

المشفى العسكري في حرستا - ريف دمشق (1965)

كلية الهندسة في دمشق (1966)

معمل السكر في جسر الشغور (1967)

مصفاة النفط في حمص : تعهد ثانوي لشركة TECHNOEXPORT التشيكية (1967)

حفر و تمديد خط النفط من حمص الى طرطوس مع مركز الوصول في طرطوس (1967)

مستودعات النفط في عدرا والناصرية وحلب (1968)

مشاريع طرق و صرف وسقاية في الغاب (1968)

محطات الضخ وأقنية الري في السن - اللاذقية (1969)

المحطة الكهرمانية في سيجر (الغاب) (1969)

مبنى الاطعام ومباني الورشات الفنية في مطار دمشق الدولي 1970

المطاحن الحديثة في دمشق (1971)

المخابز الآلية في دمشق (1971)

طريق حلب الرقة : تعهد ثانوي لشركة MAYERDER النمساوية (1972)

صرح الامير آغا خان في السلمية (1973)

هنغارات الطائرات والمباني الملحقة في مطار دمشق الدولي (1973)

سيلوهات الفوسفات في طرطوس (1974)

المرحلتين الثالثة والرابعة لتوسيع مصفاة النفط في حمص : تعهد ثانوي لشركة TECHNOEXPORT التشيكية (1974)

مراكز الكلابلات المحورية في أنحاء مختلفة من سوريا (1974)

اصلاح المدرج الرئيسي في مطار دمشق الدولي: على أثر حرب التحرير في عام -1973 (1973)

سيلوهات الاسمنت في طرطوس (1974)

مشروع محطات الضخ وأقنية الصرف والسقاية بمنطقة الحمرات في محافظة الرقة.

الجسور الطرقية في الحلة وحرستا (1975)

طرق سبع بيار - بصيرة - بطميات في الصحراء (1978)

في عام 1974 تاسست شركة سكوربفيكو SCOREFICO من " المهندسان نادر وخلدون الاتاسي" وشركاء أخرين لتقوم في حينها وحتى عام 1979 بتنفيذ اكبر وأهم أربع مشاريع صناعية في سوريا وهي:

معمل اليوريا أمونيا URIA AMONIA في قطينة (حمص): تعهد ثانوي لشركةCREUSOT LOIRE ENTREPRISE الفرنسية (1979)

معمل التريبل سوبر فوسفات TRIPLE SUPERPHOSPHATE في قطينة (حمص) - تعهد ثانوي لشركة INDUSTRIALEXPORT الرومانية (1979)

مصفاة بانياس : تعهد ثانوي لشركة INDUSTRIALEXPORT الرومانية (1979)

معمل اسمنت الشيخ سعيد في حلب (1979)

مبنى نقابة المهندسين (خزانة التقاعد) في دمشق (1980)

معملي الخميرة في دمشق وحلب : تعهد ثانوي لشركة ANDRITZ النمساوية (1982)

معمل المفروشات في ريف دمشق : تعهد ثانوي لشركة LIMES الالمانية (1982)

معمل البان الشركة السورية السعودية في ريف دمشق : تعهد ثانوي لشركة ALFA LAVAL السويدية (1983)

معمل السجاد (الموكيت) في السويداء: تعهد ثانوي لشركة UNION-MATEX الالمانية (1985)

محطة ضخ مياه الفرات لاستجرارها الى حقل التيم في دير الزور (1986)

تعديل معمل اليوريا أمونيا URIA AMONIA في حمص : تم تعديله ليعمل على الغاز الطبيعي بدل النفط . تعهد ثانوي لشركة CLE TECHNIP الفرنسية (1987)

تحضير عده مواقع لحفر آبار النفط مع الطرق المؤدية اليها في منطقة دير الزور (1990)

مباني الاتصالات بين مواقع آبار النفط في منطقة دير الزور (1990)

توسيع معملي الخميرة في دمشق وحلب (1991)

المحطة الغازية لتوليد الطاقة الكهربائية في التيم – دير الزور : تعهد ثانوي لشركة AEG KANIS الالمانية (1991)

حظائر تسمين الاغنام في دير الزور (1991)

توسيع محطة بانياس الكهربائية : تعهد ثانوي لشركة MITSUBISHI HEAVY INDUSTRIES اليابانية (1993)

معمل أدوية ابن زهر في ريف دمشق (1993)

أعمال التركيب في محطة جندر الكهربائية : تعهد ثانوي لشركة MITSUBISHI HEAVY INDUSTRIES اليابانية (1995)

معمل تعليب الرز في المنطقة الحرة في طرطوس العائد لشركة NIRUS TRADING الاميركية (1996)

محطة زيزون الكهربائية : تعهد ثانوي لشركة FIAT AVIO الايطالية (1996)

مركز تدريب الكهرباء في جندر : تعهد ثانوي لتجمع شركتي SHIMIZU - SUMITOMO اليابانيتين وهو هدية من الحكومة اليابانية الى الحكومة السورية (1998)

توسيع معمل الغاز في الجبسة : تعهد ثانوي لشركة INDUSTRI-ALEXPORT الرومانية (1999)

محطة حلب الكهربائية وسكن العاملين : تعهد ثانوي لشركة MITSUBISHI HEAVY INDUSTRIES اليابانية . وهذه اكبر محطة كهربائية في سوريا اذ تبلغ استطاعتها 1065 ميغا واط (2001)

فندق سفير السيدة الزينب في دمشق (2001)

مدينة ألعاب الارض السعيدة في دمشق (2000)

أعمال التركيب في محطة الزارة الكهربائية : تعهد ثانوي لشركة MITSUBISHI HEAVY INDUSTRIES اليابانية

تركيب البويلرات في مصفاة بانياس : تعهد ثانوي لشركة AZAR-AB الايرانية (2004)

فندق ومنتجع روتانا أفاميا في اللاذقية (2008)

محطة الناصرية الكهربائية وسكن العاملين : تعهد ثانوي لتجمع شركتي KOCH – SIEMENS الالمانيتين (2007)

بنك عودة سوريا – فرع اللاذقية (2006)

معمل تنقية وتعليب السكر في جندر. وهو تابع للشركة الوطنية للسكر بالمشاركة مع شركة CARGILL الامريكية (2008)

الفيلات الرئاسية لمؤتمر القمة المنعقد عام 2008 في دمشق : ويتألف المشروع من 26 فيلا رئاسية مع كامل الاعمال التحتية للموقع والبالغة مساحته 200،000م 2 . وقد تم تنفيذ المشروع خلال مدة ستة اشهر فقط (2008)

بنك الشرق في دمشق (2009)

معمل انتاج الغازات في دمشق : وهو تابع لشركة AIR LIQUIDE الفرنسية (2010)

أعمال الهيكل لاثنان وثلاثين فيللا في مشروع منتجع ابن هاني في اللاذقية (2010)

المهندس مروان عبد النور